من مطبوعات الامانة العامة للثقافة والشباب

وجهة نظر في التفسير البشري للتأريخ

مسعود محمد

١٩٨٥

فذلكة تقديم

هذا الكتيّب مصحح مقال نشر على اربع حلقات في اعداد جريدة العراق لأيام ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ من كانون الأول سنة ١٩٨٤ م ، عنوانهما واحد . ومن سوء الصدف أن الأخطاء المطبعية وصنوف التقديم والتأخير والبتر والتغيير كانت في ثنايا المقال من الفداحة بحيث أنها أخذت من جملة معناه ومبناه قدراً مال به عن المقصود في جانب من مواضعه وأحال وضوحه في مقاطع هامة منه الى غموض ساتر للمعنى ، فانقلب يسره الى عسر في بعض أجزائه وآل عسره الى تعذر في اجزاء اخرى فاحتملتُ من ذلك هماً ناصباً ضاعفه شعوري بمدى المفارقة والغربة بين حفاوة المسؤولين في جريدة العراق بالمقال وبين حكم الواقع في حيلولته دون السيطرة على ظروف الطبع واحوال الأخراج وما الى ذلك ، فقد صح العزم من اولئك السادة على ما اعتادوه من ايصال الصوت الهاتف بالرأى الى الأسماع فانتصب ضعف الأمكان الفني حاجباً من الأمثل وصارفا الى حيث ينحصر العلاج في التماس التصويب ونشره . ولما كان ذلك فوق طاقتى فقد عز تحقيق المبتغى

حتى تفضلت الامانة العامة للثقافة والشباب في الحكم الذاتى بالتطوع في اخراج المقال كتيّبا يبذل الجهد في تجنيبه الشوائب المخلة بالمعنى . وجاءت مباركة مسؤولى جريدة العراق لهذا المسعى تسبق تمام النطق به فتضافرت النوايا على الخير وتمخضت الهمم بهذه الثمرة تقدم في وليمة الثقافة مع الاعتذار عما وقع من قصور غير مقصود وقد عفا الله عما سلف .

ان نشر الرأى على علاته ينقل الخير الى قارئه فهو في حال الاصابة يكون قد أدى له من الخدمة ما لوحُبس عنه ضاعت عليه سانحة من سوانح الاستضاءة . وهو في حال الخطأ يفتح بوجه فكره المدقق نافذة يستطلع فيها الصواب بزيادة وضوح يتيحها تجاور النقيضين . ولقد ولجنا عصراً طرق فيه الأنسان ابواب السماوات واستكنَهَ مجهولات يهون الى جانبها نقد النظريات الأجتماعية المعروضة على الأمتحان ، وبدأ يستشعر من كنه الذرة وأس الحياة لب لباب الوجود ويتلمس في حشايا الحقايق المسربلة بالألغاز مايظنّ أنه تباشير العلل النهائية للأشياء . فقد غادر في تحليقه اوهام من سبقونا من الأجيال وارتسمت من كشوفه لوحة مفاتيح تنفرج بها احتمالات وراء أقصى اقاصى المطامح التى داعبت احلام القرون ، وتمادت نزوعاته الى استباق الممكن في تذليل سرعة الضوء مطية الى رحاب الازل والأبد ، بل طمع في الاحتيال على مضاعفتها كى يطوى بها درب ملايين السنين في زمن بشرىّ منظور ، حتى إنى حين ألتفتُ الى العملاق المنطلق الذى يخطو مارداً ويغدو جباراً أنكفئُ على نفسى مستفظعا فداحة التخلف الذى يكتنفنى في تسكعى البائس على اعتاب النظريات امتحن جواز اعادة تقويمها من عدمه ويشل احساسى بانسانيتى ما

أعلمه من امكان نـزول النوائب بمن يجيـل فكرهُ في النـواميس المتحجرة على مدى اوطان كثيرة فوق أديم الأض . وتكاد عينى ترتد الى الحملقة في لاشئ حين أجد شرطيا واحدا يُجّمد الكلمة على شفاه حشد من الفلاسفة حيثما تسود عبادة اصنام العقائد . فأنى اذ يخامرنى التردد في تفنيد الباطل الرائج هروبا من احتمال التعرض للأتهام الظالم اكون برهنت لنفسى وللناس ان انسانيتى موضوعة في الهوان مدفونة في الهُراء وان انسانية من يجاوز التردد في التعبير الى الأمتناع عن التعبير تكون قد تقهقرت الى مذلة ماقبل محاكم التفتيش و (اضرب عنقـه يا مسـرور :) . يوم تصـديت لتسخيف ازدهاء المثقف الكردى بخلو النظم الكردى من المديح ورددتُ هذه الظاهرة الى افلاس الواقع الكردى على نحو عطّله من حلية التعامل مع المديح ونزعَ منه الشعور بالحاجة إليه ونزل به عن استطاعة الصرف عليه فلقد كان القلم يتلجلج خشيةً من تفسير كلامى فيما هو مناحةٌ على المصير الكردي بما هو تنقّصٌ من الشأن الكردى . وانى إذ أدركت فداحة بؤس تأريخنا من خلال قصوره عن ايجاد اقطاعى تمتد مطامحه الى تشكيل دولة في مدى زمنى جاوز خمسة وعشرين قرنا فقد أوقفنى ادراكى هذا موقف المتفرج عـلى حلقات الراقصين في مهرجان الدعوة الى طى صفحة الاقطاع التى لم يكن التأريخ نشرها قط في سياسات الكرد وما جاوز شأنه في رسم المصائر على ابان وجوده الأجرد ممارسةَ ظلم أعجم هو من طبـائع الأمـور في كل بـلاد الله . وداعبتنى صورة البـرجوازيـة الكـردية ! المسلطة عـلى الأفهام من الافتـراضات النـظرية التى لاصلة لها بالواقع فوجدتنى اقول مع القائلين فلتسقط !! من زاوية تفاهتها وشللها وانعدام أثرها في مجـريات الاحـداث على وجـه

الأطلاق وهى اذا سقطت تداعت معها بعض نواحى الأجتماع بمستواها من التفاهة ولم ينهض في سقوطها شئ من باب توازن المؤثرات . لقد وجدت في النصف الثانى من الخمسينات اشكالا من المجتمعات الكردية تناهت في عزلتها الى حد من البدائية أبعدها من حوافّ العصر فكتبتُ فيها بالكردية أن فتح اى قاعدة مما يسمىّ في المادية بقواعد الرجعية والظلم والتخلف من مثل المضيف والمسجد والخانقاه في تلك المجتمعات يكون منطلقاً لها الى عالم الحضارة على وجه من الوجوه : عثرت على قرى روعى في ارتفاع سقوفها ارتفاع ظهور البهائم التى تأوى اليها في الشتاء . بل كتبت كلاما اوسع من هذا حين بينتُ أن أمة لم تملك مصيرها عبر التأريخ لاتعتبر مولودة كأمة وشعب بل هي جنين في رحم التأريخ سيولَدُ أمةً يوم تملك مصيرها اذا لم تختنق قبل أن يتمخض بها التأريخ ، فيكون ترديد نظرية المراحل فيها قبل ولادتها حديث خرافة ، ولقد ماتت امم كثيرة كانت مزدهرة من نحو كذا الف سنة فانقطعت عنها معزوفة المراحل ، وتنقطع عن أية أمة متشعثة لاتحتاط لنفسها بما يديها في الوجود وأقرب سبيل الى فناء أمة متشعثة غير مولودة هو تشرذم طلا ئعها على نظريات تحفر الاخاديد بين أشلائها فتتمحور حول شعارات في بعد أطياف السماء .

لقد استبد بى الخجل اذ ألفيتُ نفسى في (لعبة الأمم) ذرة تطفو على سطوح الأهمال ، ووجدت فالق الذرة ومرتاد الفضاء يتخطانى حتى لايشعر بوجودى ، وعصرنى الألم بعد ذلك من ذهول الناس حولى عن الحقايق الخطيرة التى تتقاذفهم فانثنوا الى التناحر يتطاول بعضهم على بعض بالطبقيات والاقطاعيات والبرجوازيات

في نقاش مهلك ويأخذ هذا بخناق ذلك في الخلاف على نسبة الضريبة في الدخل والمواريث مستقبلاً وفي هندسة غرفة الطعام يوم تبنى القصور تسكنها الحور وتحف بها الزهور والطيور ثم يتمادى بينهم الخلاف فيتسع حتى يشمل صيغ التحية والفاظ التسمية ويستشرى اكثر ليصل الى حجم الشاربين وتكشيرة الأسارير ، كل ذلك تحت شعارات الثورية والأشتراكية والحلول الجذرية في تظاهرة !! علمانية !! جدلية مزهوة بالنفس لاتتنازل أن تبصق في وجه أكاسرة السلطان وقياصرة القوة وقوارين المال ولايهمها فى زهوها وانتفاش ريشها خراب البيوت واستعصاء الأهداف على ان تكون شعاراتها ومفاهيمها ونصوص نظريتها في حرز من لوح محفوظ يرتد دونه الانتقاد . وساقنى طبعى دوما الى التذكير بما هو واقعى وصحيح في نظري مستجيبا لزخم داخلّي يتعاظم بازدياد الزخم المخزون من الدعاوى الخيالية المتصايحة في المناسبات االقومية والوطنية والأجتماعية والطبقية والدينية بانفساح السبيل فيها امام انطلاق المنطلق واندفاع المندفع كل بحسب مزاجه . وحل يوم لاكبقية الأيام بأوائل الخمسينات زارنى فيه بعض قادة الحزب الكردستانى واخرون من اوساط الحزب الشيوعى فصارحتهم برأيى في ستالين وكان معبود اليسار على نطاق العالمين وبينت بشاعة ماقدمت يداه وأضفتُ ان الشيوعية نفسها لاتحتمله الى ابد الابدين وسوف تتخلص منه في مستقبل قريب أو منظور فليس في الامكان أن تخلد الأسطورة الا اذا تجمدت الأدمغة وهى لاتتجمد . قلت هذا وغيره فكأنى فجرتُ قنبلة في حشاياهم أو منعتُ دوران الأرض فتطايرت جبالها . ومضى الوقت ثقيلاً بعد ذلك حتى سمعت الدنيا قولة الحزب البلشغى في جزء من السوء

الذى اقترفه قيصر القياصرة وشاهنشاه الاباطرة .

وربما ساغ لى القول بأن علة ماهو مشهود من الغرابة التى تكتنف الافكار والتصرفات الثورية تعود الى شبكة متداخلة من الأسباب منها اثنان اساسيان وسبب ثالث يكتسب الخطورة من خطورتهما :

السبب الأول هو أن الثورة تقوم بوجه نظام خلقه الواقع بالضرورة وبعفوية لادخل لارادة خاصة فيها وبمعزل عن تخطيط محدد الأهداف في اجتماع عام . فالناس في معتاد الحياة التى عاشها اباؤنا واجدادنا تقبلوا وجود الحكومة بين ظهرانيهم بلا اعتراض كتقبلهم التواء ازقتهم ورثاثة ثيابهم ومرض دجاجهم وتشقق الجدران في بيوتهم وسيطرة رب البيت على اهله ، ووجدوا الحياة تمشى متوازنة بمعايير الأعصر المنقضية ولا يكون لخلخلتها بتمرد فلان من القادة وقطع الطرق من قبل السادة والذادة أثر حسن في اى مرفق من مرافق حياتهم بل يحصل منها شر مؤكد بحصول نقص في الثمرات والانفس وفقدان الأمن والسلام في الديار . ويوم يغزوهم غاز من خارج بلادهم ما كان لهم مفزع يلجأون اليه بامالهم في السلامة غير الحاكم المنتصب أمامهم . لذلك لانجد في عصور التأريخ ترحيباً عاما بالانتفاضات الا اذا بلغ السيل الزبى وتساوى السوء الذى يعانونه في الحكم القائم مع السوء المحتمل من انحراف الانتفاضة الى ما لايسر . ومع أن موقف كل البلدان من الانتفاضة لا يكون متماثلاً ، فالبلدان المتقدمة نسبيا كانت اكثر تبرما بالحكم السئى ولكنها في الوقت نفسه اكثر حرصا على النعمة الدنيوية المتاحة فلا تخاطر بها جزافا بالاستجابة لصيحة كل صائح . ومنطق الاشياء يرفض ان يكون قيام هذا أو ذلك من

الطامحين في الزمن السالف تعبيرا عن ضمير عامة الناس حتى يصح الاستدلال من ذلك على سريان الكفاح ضد الحاكم منذ الأزل فالاغلب الأعم أن تكون غالبية الناس في معزل عما يشتجر بين الاقوياء . والكلام يطول في هذا الباب الى غير نهاية منظورة ويتوزع على أمور كثيرة مرتبطة برضا الناس وسخطهم وبسكوتهم ومطالبتهم وتمردهم واستكانتهم ، وتوزعهم هم على اتجاهات وقناعات وعقائد ومصالح مختلفة لايمكن استيفاء عشر معشارها في هذا المجال الضيق فاختصره في جمل قليلة تؤكد ماقلته من ان ميزان الامور في المجتمع يرسو عادة على التسليم بوجود شعب وسلطة فلا يهون بعد ذلك على الناس الدخول في مجابهة مع السلطة القائمة بينهم بنية تغييرها وهم يعلمون أن أقرب النتائج الى الأحتمال هو مجئ سلطة اخرى الى الحكم لايضمنون حسن سيرتها بينهم . لذلك يكون الواقع الأجتماعي المتصل بالحكم قد سبق منه افتراض الأستقرار العام ولايغير من هذا المبدأ الاساسي ما قد يكون في المجتمع من شرائح وأصناف وطبقات ومذاهب واديان فالحقيقة التي يتمحور حولها وجود السلطة على سبيل الحتم هى ان السلطة ضرورية لاغنى عنها وان انتقاءها واختيار القائمين بها في الماضي كان خارج الأمكان [باستثناء تجربة اليونان والرومان] . و ضرورة السلطة دامت حتى اليوم وتدوم الى ما لانعرف له نهاية ملحوظة في المستقبل . فالثورة وارادة التغيير تتصدى ابتداء لتغيير شئ فرضه اقتضاء المصالح وتوازنت في كنفه جوانب المعادلة الأجتماعية على نحو من الانحاء . وتلتبس هذه الحيثيات بالسبب الثانى لينتج منها قماش من قطعتين متداخلتى الهوامش .

السبب الثاني هو ان الثورة بمعناها الدقيق البعيد من فكرة الانقلاب تنبثق ابتداء من افكار وتصورات عن المجتمع ومصالحه تبدو للمؤمنين بها تامة الصحة فهى تؤمن ايمانا قاطعا بفساد الحكم الذى تريد اسقاطه فسادا مطلقا . وتؤمن ايماناً قاطعا بصحة الحلول التي تعتنقها صحة مطلقة . وتؤمن ايماناً قاطعاً بكفاءة الوسائل التي ستستعملها في التغيير كفاءة مطلقة وهيي في كل هذه التصورات طوبائية مغالية لانها من كلها خيالية وعاطفية تتعامل مع مسلماتها النظرية في ثقة من يحرك قطع الشطرنج على رقعة طيعة مفهومة المسالك : انها لم تجرب الحكم سابقاً لتتأكد من مدى الفساد في الذى كان جاريا قبل مجيئها الى الحكم ولتستيقن من وجود بدائل صالحة كان الحكم المنقضى يحجم عنها لرسوخ السوء فيه ، ولم تطبق نظريتها سابقا على الواقع لتعلم مدى التوافق والتضاد بينهما . ولم تستعمل وسائل التطبيق سابقا للتأكد من سلامتها في العمل كما كانت في النظر . الثورة تكون في المعتاد خالية من التجربة الحية وقصارى علمها بفن التطبيق العملي لما هو نظرى ينحصر في وتوقها من فساد ما كان مطبقا في الواقع الذى تريد تغييره ومن هذا الوثوق تستدل على صلاح الحلول التي استخلصتها من مناقضة ماهو سقيم بنظرها . فنحن في العراق انطلقنا ابتداءً في عملية الاصلاح الزراعي من افتراضات كان كثير منها على جانب كبير من الفجاجة فانه باستثناء وضوح الفساد في اتساع الملكيات الى عشرات الالوف من الدونمات كان كل شئ في شؤون الزراعة مضببا في رؤية القائمين باصلاحها فعالجوها معالجة الذاهبين الى حفلة صيد يطلق فيها الرصاص جزافا بلا حساب للنتائج . لقد سمعت بأذنى في احد الاجتماعات بالقصر

الجمهوري في وزارة المرحوم عبدالرحمن البزاز ، سمعت ضابطا كبيراً يستشهد بضابط كبير اخر من الحضور وهو يقول ان اخر غلّة لمزرعة بالجنوب قبل الثورة كانت ستين الف طن لقاء كلفة اقل من ثلاثين الف دينار . واخر غلة للمزرعة نفسها بعد الأصلاح الزراعي كانت ألفى طن لقاء كلفة تزيد على مائة وعشرين الف دينار . ومما يسلينا في هذا الباب ان الزراعة في الاتحاد السوفياتى لم تنهض من كبوتها على أيام ستالين حتى يومنا هذا . وسمعت من ماركسى اثق في اخلاقه ثقة كبيرة ان ٥٪ من الأرض تستثمر هناك للحساب الخاص تعطى ٢٥٪ من مجموع الانتاج الزراعي فيكون معنى ذلك ان ٩٥٪ من الأرض المستثمرة في التعاونيات تنتج ٧٥٪ من المحصول . وفي الذكرى الأولى لاعلان قانون الأصلاح الزراعي ، سنة ١٩٥٨ ، طُلب الى ان اكتب مقالا في المناسبة بوصفى احد اعضاء اللجنة التي أخرجت القانون الى الوجود . وكنت ارى وألمس بوضوح مدى تعثر القانون في التطبيق فكتبت مقدمة تمهيدية استهللتها بمثل الكلام الذى ينتقد فيه الوالد هفوات ابنه الحبيب الى قلبه فرفضها المهيمن على الاصلاح الزراعي وقتئذ ولم يعد أحد اليَّ بعد ذلك في مناسبات المستقبل . والكلام في هذا يطول أيضا الى مالانهاية له فاختصره في القول بان ثقة الثورات بمسلماتها مبنية على اساس نظري أقصى قوته منتزع في الظاهر من وضوح الفساد الذى تريد ازالته . وأكبر نقص فيه انه يفترض سلفا ملاءمة حلوله للواقع وسلامتها في التطبيق بالأضافة الى رؤيته للدنيا من خلال كوة واحدة تجعل الدنيا نفسها ذات بعد واحد ، فليس في قواميس الاقتصاد مسلمات محترمة تقود الى الهلاك في غير تقديس الثورات لما تفعل والدفاع عن مزلق الخطأ المقدس ينسج

مع الزمن خيمة من التبريـرات والتأويـلات ومن تبريـر التبريـر وتأويل التأويل وتبرير التأويل وتأويل التبرير كلها مزالق الى اخطاء اضافية تستلزمها المحافظة على قدسية المعين الذى نبعت منه هذه المزالق ، وهنا يجئ دور السبب الثالث المؤشر اليه .

الثورات في العصور الحديثة لها مدارس فكرية ومؤسسات ثقافية ومراكز اعلامية تـدافع بهـا عن رسالتهـا وتفند رسـالات المدارس المناهضة لها وتستقطب في ذلك كل طاقة ابداع موجودة في حوزة ابنائها وتهيمن على وسائل النشر والتفهيم ضمانـاً لجولان الفكر في حيّز مأمون لاتتحطاه الى حيث تنتقض به حبكة الأقتناع بأفضلية ماتفعل الثورة . فاذا كان انشغال العقول حاصلاً في شئ يوجد خطأً في اساساته خرجت على الدنيا بكلام غريب لايقبله غير قائله وتبدأ معه متاهة في التخريجات والتأويلات والتبريرات سلفت الاشارة اليها ومن شأنها أن تعطل امكانات التصويب الا اذا نزل التصـويب من أعـلى . فـالخـطورة تكمن في أن يُفلسف الخـطأ ويُضفىٰ عليه الصواب بلا أمل في كشفه من قبل القواعد وعامة الناس . ان للثورات حقا في ان تحمى نفسها ولكن عليها واجبا في تسهيل النقد بحدود المعقول والمصلحة . ولنكن جميعا على ثقة من أن الناس العاديين ليسوا مجموعة من (مشاريع انحراف أو خونة محتملين) اذا وجدوا امكان الانحراف انحرفوا . وان البير كامو يوم انتقد العمل المسخر في أيام ستالين ما كان اخذ عمولة من امريكا لقاء ذلك بل دفعه ضميره و واجبه الانسانى ان يضع اصبعا على موضع الخلل . ولوقدرت لألزمت الثوريين عامة بتفهم اثنتين من قصص سـارتر تفيـدهم اكثر الفـائدة في هـذا المضمار إحـداهما

(الدوامة) والثانية (الأيدى القذرة) فهما في الحق مصباحان منيران .

ومما يتصل بهذا الشأن الذى أتكلم فيه مسألة فترة الانتقال التى تعقب كل ثورة في المعتاد فمن افدح الاخطار ان تدوم الى مدى بلا نهاية فهي أولا ضد طبيعة الأشياء وهى ثانياً نقض لوعد الثورات بالافراج عن الناس ثم ان تراكم السلبيات بسبب خروجها عن دائرة النقد في فترات الأنتقال يكون بحد ذاته ثقلا تنوء به طاقة المجتمع في التحمل ويكبل ابداعه المحتاج الى طلاقة فلايكون ابداع الا ما كان نازلا من قطارة الهيمنة الرسمية . واذا كان فتح الباب لمناقشة الأمور ذات الخطورة القصوى شيئا تأباه طبيعة الثورات فان غلق الباب بوجه مناقشة كل شئ يقضى اول مايقضى على الأهداف التى تقوم الثورات من أجلها فليس من المعقول أن تبقى ملايين الناس على مدى الدهر في (امتحان ضمائر) وقد يكون الشخص الموكل بامتحان الضمائر احوج الناس الى امتحان . والمناخ الذي يتنفس فيه الرأى الحر الخالص النظيف ملأرئيته دليل سلامة وبشير صحة وباب أمل وحديقة مزدانة بالزهر والشجر . ولربما كانت حرية التعبير أشبه شئ بصمام الأمان لأنها تقوم باخراج ما في الدخيلة فيضيق بذلك المجال أمام من يدبر الأمر بليل . والرأى الحر المخلص ديدبان شرف الثورة ولسانها الذى ينطق بالحق ويذوق طعم الواقع وهو الذى ينتقل بالحكم من (لعبة كراسى) الى نسيج شائع في بنية المجتمع فيتلابسان على وجه الأمتزاج . وانى في مقامى هذا ألتمس من التأريخ والقيّم عليه السماحَ لى بتثبيت كلام رددته مرارا في حوارى مع المتحاورين . فقد قلت انى استطيع أن احصى عشرين

انساناً ممن اعرفهم معرفة نافية للجهالة كان من شأن اى منهم أن يقدم من المشورة في مصالح العراق ما لواتبعه المرحوم عبدالكريم قاسم لكان من الممكن ان يجنبه المصير الذي انتهى إليه وهو كلام ضخم لايلتئم في الظاهر مع الثوران الذى زلزله فاقتلعه . ولكنه عند تدقيق الرأى وانعام النظر فيه لايبدو بهذه الضخامة فان عبدالكريم مر بدور في باكورة الثورة لو استفتى فيه الناس لانالوه ثقتهم بلا تعب وبلا حاجة الى مشورة اولئك العشرين . وكان بعد ذلك يملك رصيدا متبقيا من لمعانه الأول اذا أضيف اليه منطق الحكمة من عقول بمستوى ذكاء واخلاص اولئك العشرين لكان خليقا أن يجعل (افئدة من الناس تهوى اليه ـ صدق الله العظيم) ولربما أنصفتُه اذا قلت فيه ان الرجل كان نظيفا يريد الخير فيخطئه لضعف جهاز التصويب الصحيح بين بطانته . وميله الى التفرد والتوحد نفض منه أصحاب النظر السليم والتصويب القويم . رحمه الله وأحسن اليه .

منذ اربعين سنة كانت تجربتى في مجال بيان الرأى مع الأحزاب الثورية في المنطقة الكردية بالدرجة الأولى ثم تأتى تجربتى مع النظام القائم عصرئذ . فالسلوك من اى عامل في ميدان السياسة الكردية كان ينبغى ان يستوحى من الأخلاقيات التي ترضى عنها الأحزاب لا أن يستوحى من مستلزمات التعامل مع الواقع الأرحب ، وكان سلوكا مضيقاً عليه محوطا بالشك مؤطرا بالروادع على صورة من الصبيانية أشبه بالهراء . فزيارتك للقائمقام وزيارته لك ورقة اتهام تحتاج الى اثبات براءة وقبولك دعوة رسمية في مناسبة عامة أو وليمة أو اضطرارك الى استضافة الرسميين من باب المقابلة بالمثل ولوج في الشبهة بعدها المشقة .

وتبادل الزيارات مع وجهاء البلدة تمايل الى الرجعية . . وقائمة طويلة بمواطن الشبهة يجب الحذر منها وفاقاً للالهامات الثورية وارتفاعا الى المستوى اللائق بالوطني . ورغم ميلى الفطرى الى الاكتفاء بالذات في اغلب وقتي وقلة اعتنائى بالبهارج الاجتماعية الجوفاء فقد رفضت منطق الحظر والتحريم من أساسه وكثيرا ما كنت اردد الكلام في مثل هذه الشؤون فاقول ان الناس لاتستيطع مقاطعة مصالحها بمقاطعة الحكومة على امل حلول اليوم الموعود . وليس مطلوبا من العامل في السياسة ان يكون بدعة الايام وأضحوكة الزمان بهجر الأعراف الأجتماعية وماهو مألوف من مقتضيات الأحوال ودواعى المصلحة وكنت اقول في ذلك أن النزول بالألتزامات الأجتماعية لشخص معروف بين الناس الى مستوى التزامات شخص اخر محدود الارتباطات هو من قبيل ربط الحى بالميت يخسر فيه الحى ولايستفيد منه الميت . وكان من رأيى ، ولايزال ، انه كفى المواطن من أية مرتبة أن يخلو تصرفه من المطعن والمضرة فلا التزام على أحد بالتضحية المبالغ فيها ولا انصاف في مساواة المسؤول عن عائلة بمن لامسؤولية عليه ، ولا إنصاف أيضا في مساواة رئيس عشيرة برب عائلة من عامة الناس . ويكفى المسؤول الحكومى شرفا ان يتقيد بالقوانين فلا وجه في مطالبته أو مساءلته على اساس أنه وكيل الأحزاب الثورية في ممارسة وظيفته .

وما تخليت عن استقلالى بالرأى فيما انا مقتنع بصوابه في عهد ماقبل الثورة وعاش معى بعد الثورة لم يعتوره تقصان وقد يسوع القول بانه زاد بانكشاف حقائق كثيرة عن ماهيات

الاتجاهات والمواقف ما كان لها أن تنكشف قبل الثورة فكان اغتناء تجربتي الشخصية بالأحداث وهي تقع في صيغ تصدق قناعاتي الأولى داعيا في الحاح الى التمسك التام بالرأى . واقترن الرأى بأمكان نشره فنشرته تباعاً على الوجه المذكور في هذا الكتيب ، واتسعت على الايام مساحة الحلبة التي تشتبك فيها الفلسفات والافكار المتصلة بالاجتماع فانداح فكرى على مقاسها وتبلورت فيه قناعه نهائية تهيبتها زمانا حتى دفعها الى العلن زخم داخلى لايقاوم فصارت مقالاً استحال الى كتيب بين يديك . والمواضيع المستعرضة هنا ، رغم كونها جزءً ضيئلاً من مجموع مايستلزم عنوان الكتيب شرحه ، هى ذاتها بحاجة الى شرح وتمثيل واستشهاد وبرهان يبعد عنه غرابة الأقتضاب . ولقد أبدى صديق كان قرأ المقال بدقة ملاحظة وجيهة حين قال ان في المقال جملاً تعتبر كل واحدة منها عنوان مقال مستقل ، فأضيف الى ملاحظته ان محتوى المقال في جملته أشبه بمجموعة من قصاصات البضائع التى يعرضها البائع على المشترين من باب الدلالة على ما هو مخزون منها في الدكان فالطريق أمام « التفسير البشرى » طويل والعناء فيه مهول لايقل عن استعراض التأريخ كله من الزوايا المألوفة ومن زوايا جديدة تستلزمها طرافة الرأى ، ويشمل البحث فيه من شؤون البشر مايمكن اخضاعه للقواعد العامة وما لايخضع للقواعد العامة والخاصة بل ينفلت مع النزوة العابرة والرغبة المنبعثة والصدفة المباغتة ومع اللاسبب واللا جدوى واللا معقول بل قد نجد السبب المطلوب للتفسير في حلم أهوج خايل الذهن المأفون لسلطان أهوج بل قد لانجد سببا محدداً لشئ من الأشياء البشرية وانما نجده قد حدث من قبيل وجوب ان يحدث شئ ما فقد تتولد

عند زيد من الناس رغبة مباغتة في ان يتصرف على وجه من الوجوه

فوجد قطا فلاحقه او قتله وكان من الممكن أن يجد قبل القط شجرة فيتسلقها ويدق عنقه . . فالبشر في واقع بشريته هو غير ماتطالعك صورته في البحوث النظرية والكتب المؤلفة في العموميات فانت لاتقرأ في البحوث انساناً يتجشأ ويفتح فمه على سعة في التثاؤب وينظر في شقوق الجدران الى بيت الجيران ويفعل في الخلوة ما يخجل منه في العلن ويكذب فيما لاداعى فيه الى الكذب ويتطاول على المحافظ ثم يتصاغر أمام مأمور المركز ويشرب المسكر في افطار صومه ويصلي بلا وضوء أو يجدد الوضوء في كل صلاة أو . . أو . . وانما تجد بشراً يكون نموذجا صالحاً للبرهنة به على صواب النظرية وسلامة القاعدة . . يقول برناردشو انه حين اختار بطل مسرحيته (تلميذ الشيطان) نموذجاً من واقع الحياة اخضعه النقاد الى احكام النظريات والعموميات فأخرجوه تماماً عن النطاق الذى أردته فيه ففسروا تضحيته بالنفس بالأسباب التى يجب أن تتكافأ مع خطورة التضحية ولو قرأوا صفحة الوفيات في جريدة التايمس لوجدوا أناساً ضحوا أو خاطروا لغير سبب خطير . . فحياة الأفراد خليط عجيب من المتنافرات وقل ان تجد بينهم فرداً واحداً يتصرف في فرديته بما يتناسب مع حضرة جنابه وهو ماش في مسيرة أو مشارك في مظاهرة أو مصدق لنظرية الكفاح الطبقى . وقد يكون كلامى هذا بنظر الانسان المستغرق في الأمور الخطيرة ضرباً من الشرود الى القشور والهوامش ولكن الحقيقة هى أن الأنسان العادى في القرون الماضية التى تتصدى النظريات لتحليل أحداثها كان منشغلاً غاية الانشغال بالتوافه التى ملأت حياته من صباحها حتى وقت سباتها

وماكان أحد منهم يعلم أنه سيكتسب في المستقبل خطورة عند الفيلسوف الاجتماعى والتأريخى كى يجبر خواطرهم بالتصرف الذى سيصلح أن يكون مصداقاً في المستقبل لفلسفاتهم وتعليلاتهم ، فبائع الشلغم ببغداد قبل الف ومائتى عام لم يكن يعلم عن نفسه ماسيعلم عنه فيلسوف القرن العشرين من كونه صانع القرار أو مشاركاً في صنع القرار بالقضاء على بابك الخرمى وكان همه الأول هو انتهاز الفرصة للسطو على بيض دجاج الجيران ، ولو هدته المعجزة الى اهتمامات الفلاسفة في القرون اللاحقة فكلف نفسه أن يرتفع الى مستوى تلك الأهتمامات لمات جوعاً أو ضرب بالسياط .. ان البحث في التأريخ على هدى التفسير البشرى متعب حقاً .

وقال لى صديق آخر ان نفسه نازعته الى أن يجد في المقال تفسيرا لتطور الفكر ، فأضيف الى نزوعه نزوعى الخاص نحو الأهتمام بموضوع الفكر وتطوره على ان يجرى ذلك بعد الأخذ بمنظور التفسير البشرى فيكون من اولى نتائجه أن يحذف دور الألة في تطور الفكر على النحو المصور في المذاهب المادية التى تعطيها الاولوية في التطوير فما الألة نفسها الا من مبتدعات الانسان المفكر الذى يكتشف ابتداءً المعادلات المستلزمة في الأختراع والابداع ثم يركبّ على ضوئها اجزاء لاحصر لها في صنع الجهاز المستعمل في الأنتاج أو تذليل الصعوبات أو حماية النفس أو خدع الناس أو تسليتهم أو قتلهم بالجملة .. ثم يعود يسخر هذه الالة مفتاحاً لكشوف اخرى في العلم المجرد أو في الصناعة وغيرها . فنحن نقرأ ان المخترع الفلانى لبث كذا سنة يفكر ويدبر ويقدر ويحتال

ويجرب ويركبّ ثم ينقض ليركبّ من جديد مرة بعد اخرى حتى يستقيم له الوجه الذى يضمن به سلامة اختراعه وصلاحه في العمل فيأتى المفكر المادى من خارج عالم الأختراع فيحذف الأختراع من سلطان عقل المخترع ويعزوه الى الألة قسرا وجبراً . انا اذا نجونا من مثل هذه الأحبولة وحررنا الفكر من رقه للالة وجب أن نعرج بعدها على مسألة كون الأصل في تطور الفكر عائدا الى طبيعته في التجول والاستدلال والخلق ثم يأتى الأجتماع عاملاً مساعدا ام ان الأجتماع هو نقطة البداية في التطوير ! وفي رأيى ان المسألة تردّ الى كون الانسان مخلوقاً يملك طاقة الفكر يفهم بها الأشياء [أو يقصر دون فهمها حتى حين] ويساعده الأجتماع المساعدة الكبرى ، وما الأجتماع في اساسه الا ظاهرة نابعة من اقتضاءات طبيعة الأنسان بكل جوانبها العاقلة وغير العاقلة . فكما ان المعدة لها قوة الهضم ولكنها لاتستطيع هضم العدم فلابد من طعام تهضمه كذلك الفكر لايستطيع ولا يراد منه ان ينمو في الفراغ . والفرق واضح بين الفكر في البداوة والفكر في الحضارة ولكن نعود فنقول انه كما لا تستطيع المعدة ان تهضم الطعام بدون قوة هضم كذلك لايمكن للأجتماع أن يوجد ، فضلا عن أن يتقدم ، بدون فكر . والقضية لاينبغى أن تكتسب خطورة لولا اصرار الماديين على ربط الفكر بالاجتماع على صورة تنزع منه صفة وجوده المتفرد المستقل فالفكر والأجتماع كلاهما بشرى فليس من المقبول ان نطلقهما يتهارشان . وشر الشرور هو في تقديم الأجتماع على الفكر بهدف تعطيل شخصية الفرد وجعلها قطرة في بحر . على ان هذا الجانب من الموضوع يرتبط بالسياسة ومدى استفادة النظام المسيطر من احدى الوجهتين . وواضح ان كل نظام مرتكز

على (الرأى الواحد) يرحب بتعطيل إرادة الأفراد عن سبيل حشرها في ارادة الجماعة التى ينوب عنها ذلك (الرأى الواحد) في التعبير والرضا والسخط وكل شئ . ويجب الأنتباه في إطلاق قولة (تطور الفكر) إلى حقائق مهمة لايجوز إغفالها والا اعتور النقص ، بل الخطأ ، أى نتيجة يمكن الأنتهاء إليها . فالفكر ليس كله نورا بل بعضه الخطير ظلام ينعكس من تحليله وتعليله للأشياء بغير حقيقتها وقد حاولت ان اشرح ذلك بالكردية في الجزء الثاني من كتاب (مروف ودەو روبەر ـ الأنسان وما حوله) في مائة وتسعين صفحة لم استطع فيها غير الألمام ببعض جوانب المسألة . والفكر ليس كله شائعا بالتساوى بين الناس ، فرواد الفكر واصحاب الفلسفات والعقائد أفراد ممتازون تهيأ لهم ان يمارسوا امتيازهم الفكرى . وبين الناس ممتازون اخرون لفظتهم ظروف حياتهم إلى حيث لايزكو الزرع على الصخر الأصم . وغالبية خلق الله منقادون في الفكر الى اولئك . والفكر في الأمور القابلة للتغير والمحتملة لأكثر من وجه واحد يجوز أن يختلف من شخص الى شخص دون أن يوصف احدهما بالخطا ، كما يجوز ان يكون كلاهما على خطا ، وفي العلوم التجريبية ذات الدساتير والقواعد المؤكدة يكون الفارق بين الفكر المصيب والمخطئ واضحا ، ولا اعرج هنا على النسبية ومدى تأثيرها في النتائج التى نسميها بالنهائية والمطلقة فقد كفانا ميزاناً أن تأتى النتيجة دائماً على وفق ماينتظره الفكر أو القاعدة العلمية . والنسبية نفسها تتعامل مع الوجود على اساس أن دساتيره مطلقة الصحة والا احتاطت في اطلاق الحكم على أي شئ ولما طارت طائرة أو تحركت قاطرة خوفا من أن يخيب ظنها في الدساتير التى تتبعها في الطيران والحركة . ولست أريد بهذه

الفذلكة إلا المامة خاطفة بملحوظة الصديق فموضوع الفكر عباب واسع و للكثير من فروع العلوم التجريبية دخل فيه والكلام في ذلك كله له مجاله الخاص به فاننا اذا اقتصرنا على درس اختلاف مناهج الفكر واهتماماته من بلد الى بلد لطال بنا التجوال وقد لا نصل فيه الى غايه . .

وبين صديق آخر بعض ملحوظاته في مجمل المقال يمكن حصراً همها في ثلاث نقاط أساسية :

النقطة الأولى هى ان الفلسفات كلها تستهدف البشر فوجودها ملحوظ في جميعها . ويرمى هذا الكلام الى انتفاء الضرورة لتكلف العناء في تفسير الأجتماع بالبشر نفسه . وجوابى عليه هو أن هناك فرقاً كبيراً بين ان نحاول في فلسفتنا ايصال المصلحة أو المضرة الى البشر وبين أن نفسر سلوكه وتأريخه بأسبابه الحقيقية . وهناك فرق كبير آخر بين أن ننشغل بالبشر في فلسفتنا باعتباره معلولا بعلّة من خارج وجوده و بين أن نشغل به باعتباره علّه تفسر الدنيا الأجتماعية من حولها. وهذه النقطة بالذات هى أول مايهتم به التفسير البشرى للتأريخ ، فالبشر في هذا التفسير علة العلل . وكل الاسباب التي تلجأ اليها الفلسفات من آلة واقتصاد ونظام وضرر ومنفعة معلولات وفروع لأصل واحد هو البشر .

النقطة الثانية عدم ضرورة جعل الفلسفة الجدلية وحدها هدفاً للنقد لبناء نظرية أخرى من انقاضها والأوفق تعميم القول في الفلسفات بأنه لا كفاية في أية واحدة منها بمفردها في تفسير التأريخ وإنما يفسر التأريخ بمجموع هذه الفلسفات . فأقول باختصار .

لاعداء لى مع الفلسفة الجدلية الآ بمقدار ماهى تضعنى في موقع الخصومة . و بى استعداد ان أعلق لافتاتها على باب دارى في الانتخابات بشرط أن تترك لى مجال الكلام والتصوف اذا هى كسبت الأنتخابات . وان تتخلى عن السلطة اذا خسرتها وافرح باشد من فرح تلامذتها اذا تحققت أية نتيجة تبشر بها من غير سبيل القسر والأرغام واضيف اليه فرحاً آخر اذا هى نـزلت على رأي الأكثرية الساحقة من شعب پولونيا مثلا . اقـول هذا مـع ثقتى بحلول يـوم يضحـك فيـه الشـرق والغـرب من فكـرة تكبيـل الارادات . ومن صالح الجدلية ان تكون هى نفسها البادئة برفع الحواجز . والجدليون يسمعون مايبشر به الجدليون الاوروبيون في يومهم الراهن . وما اقوله انا لايكاد يكون على بعد ملحـوظ مما يقولون هم وان كان الذى لم يقولوه حتى الأن كثيراً وخطيراً ومن واجبهم التأريخى أن يقولوه .

أما اني انشغل بالجدلية في مناقشتى فذلك لسببين في أقصى الخطورة : اولهما ان الفكر السياسي الكردى منحصر في الجدلية الاماندر فاذا كان فيها خطأ يستوجب اعادة النظر اتضحت خطورة بقائه مستورا على الكفاح الكردى لان الخطأ لايقود في العادة الا الى الاخفاق . فنحن في يومنا هذا ، ومنذ اربعين سنـة ، مجابهـون بالمفاضلة بين الكفاح من أجل الكرد في خط مستقيم مباشر وبين دمج الكفاح الكـردى في الأممية وانتـظار الفرج في اعقـاب ثورة بروليتارية عالمية يكون من نتائجها وصول الكردى لحقوقه . وأنا بجانب الخط الأول جملة وتفصيلا فاذا تحقق الخط الثاني كان نصيبنا فيه محفوظا .

وثانيهما ان الجدلية دون بقية الفلسفات لاتترك شيئاً الى غيرها بل لها رأى في كل المسافة بين الأزل والأبد وتحكم بالصلاح والفساد في الأشياء حكما لايقبل النقض و (الأستئناف والتمييز) وتأخذ غيرها من الفلسفات والمؤمنين بها اخذ الأستئصال ولا يعلم غير علام الغيوب كيف ستنفذ عملية الأستئصال في مجتمع متأخر بدائى متخلف يصعب التفريق فيه بين اقتضاء المصلحة التى تقدرها الجدلية واقتضاء الحقد الذي تتولد في النفوس بطول الحرمان والدوام على استظهار الصيغ الموحية بتصور المجتمع الطبقى على أنه معمل يتم فيه باستمرار نقل الدم من أسفل الى أعلى . فاذا قيل مابالك مهموماً في أمر بعيد التحقق وليس في الجو شئ يشير الى الخوف منه فأقول اذا صح ذلك فمن الخسارة الفادحة أن ينشغل جانب كبير من طلائع الكرد بأمر لايتحقق فأولى بنا أن نصارح أنفسنا بوجوب عودة هذه الطاقات الى شئ ممكن التحقيق .

واما القول بأن مجموع الأراء والفلسفات يفسر التاريخ فأعلق عليه ابتداءً بانه اذا صح كون هذه الفلسفات بمجموعها تفسر التأريخ فقد كان معنى ذلك ان التفسير البشري للتاريخ صحيح صحة مطلقة لان البشر في هذه الحالة يساوي مجموع الفلسفات ويفيض عنها أيضا. وتبقى الضرورة قائمة بعد ذلك بالحاح أشد في صياغة جديدة تضم كل الحيثيات التي وردت في جميع الفلسفات لانه لايمكن للقارئ المتعلم أن يطلع على كل الاراء والفلسفات ليتسنى له بعد ذلك تفسير التأريخ .

والقـول بان مجمـوع الفلسفـات يفسـر التـأريـخ يتضمن افتراضين غير موثوق منهما : اولهما ان الفلسفة الواحدة صائبة في ميدانها المحدود ، فيكون حاصل جمع مجموع الصوابات المحدودة هو الصواب الأكمل . وليس في هذا الأفتـراض مايـوثقه فنحن لانعلم كم من الفلسفات باطلة وكم منها صحيحة وكم منها جامعة بين البطلان والصحة ويطول العناء في استخلاص الصوابات من البطلانات في كل الفلسفات لنقيم منها بنيانا تام الصحة . وثاني الافتراضين هو ان هذه الفلسفات بمجموعها قد استوفت بحث التأريخ والبشر في كل تفصيلاته حتى لاتبقى حاجة الى راى جديد يسـد الفجوات ، وواقـع الأمـر لايسلم بمثـل هـذا الأفتـراض فالفلسفات أو المدارس المهتمة بالتأريخ تترك مساحات عريضة من خارطة تصرف الأنسان الفرد والمجموعـة المحدودة وذات الأثـر اليسير تتركها بلا بحث ولا ذكر ولا عناية باعتبارها هامشية أو بلا اعتبار أصلاً . الفلسفـات في العادة تـأخذ من التـأريخ مـوقف الطبيب الذى يكتفى من معالجة المريض بمطالعـة الاراء الطبيـة الواردة في المرض المشكو منه وأنسب الأدوية لشفائه ، ولا يأخذ المريض نفسه وبحد ذاته موضوعاً للعلاج فقد يشكو حساسية من الدواء الموصوف أو يكون مصابا بمرض ظاهر أو كامن يضره الدواء الموصوف او تكون معدته لاتهضم الطعام لموصوف . . والى آخر الاحتمالات . وفي رأيى . تنفرد المـاركسية من بـين الفلسفات باستيفاء القول في التأريخ وبيان وصفة الشفاء على حسب التصور الذى استنبطته في المادية الجدلية والتأريخية . وعلى هـذا لاتكون الحاجة منتفية أبداً الى تصور جديد يشمل كل حيثيات البشر في تناوله للتأريخ بوضع البشر في مركز الدائرة الأجتماعيـة . وتأتى

المشقة القصوى في ضرورته القصوى . واقول من باب التوضيح انى لم أفهم نـابوليـون في كل مـاقـرأتـه عنـه من كتب التـأريـخ التقليدية ، ولكن قاربته بفهمى بعدما قرأت احدى مسـرحيات برناردشو تتكلم عن نابوليون كما كان في واقع الحياة ، عبارة عن ثلاثة ارباع ردود الفعل في التعـالى والانتفاش كـرد فعل لـربع الشعور بالنقص و هوان المنشأ وقذارة الممشى التى بدا عليها أولى خطوات ازدهاره ، ولا اغمطه بهذه قابلياتـه الشخصية ولاسيـما عبقريته القيادية في الحروب .

والنقطة الثالثة في ملحوظات ذلك الصديق هى ان اغلب ما انا اسميه بالعلاقات والحيثيات البشـرية هـو في التعليل المادى علاقات مادية . فالرابطة بين الاب وابنه رابطة بشرية ولكن علاقة الناس بالسوق والمعمل والمصالح المادية عموما علاقات مادية تتميز عن الاولى وتخضع للقواعد الجدلية .

امـا أنها تخضع للقـواعد ، فهي تـامة الخضـوع للتفسـير البشري لأن الجانب الاساسي بل كل الجوانب في هذه العلاقات بشرية ، فاليقال لايتعامل مع القواعد الاقتصادية ولا مع المبيعات نفسهـا وانما هـو يتعامـل مع البشـر مثله ويدخـل معه في لعبة (استغماية) يريد بها جر رجله . . وتسقط هذه القواعد بالكليـة حين نجد ان المجتمعات المتقدمة ألغت (الاستغمايـة) وحددت الاسعار ورضى بها البائع والمشترى على حد سواء ، وصار البائع لايخفى دخله من الحكومة بنية تهريب الضريبة . فالسلعة الواحدة وهى ذات وجـود مادى خضعت لنـوع من العـلاقـات في البلد المتخلف هي من جنس التخلف نفســه وارتقـت الى نــوع من العلاقات الحضارية هى من جنس الـرقى الذى بلغـه اصحاب

الحضارة نفسها . لايمكن اطلاق صفة المادية الآ على العلاقة بين المواد في الطبيعة كعلاقة الايدروجين بالأوكسجين في تكوين الماء فهى صادقة وواحدة في كل الطبيعة ولا تفاوت فيها من شرق الى غرب . ثم لايقف الكلام عند هذا .

نترك علاقة البشر بالمصنوعات البشرية وبالدساتير الأقتصادية البشرية ونأخذ علاقته بالصخر وهو يعبده صنماً وبالصخر وهو يفتته قطعاً صغيرة لمقلاعه الطفولى وبالصخر وهو يسحقه في الأسمنت وبالصخر وهو يقيم منه جداراً في بيته وبالصخر وهو يقتل به عدوه أو صديقه فالعلاقة هذه تتغير تبعا لتغير نية أو مزاج أو عقيدة الانسان الذى هو الطرف الثاني من العلاقة والصخر هو هو في كل الأحوال . ونأخذ لحم الخنزير مثلاً لما نريد أن نمثل له . فالمسلم تعافه نفسه وغير المسلم متفاوت بين الاقبال على اكله وبين الأحجام لعدم الاشتهاء . فالمسلم انصرف عن لحم الخنزير ومنافعه انصرافا ووراءه ملامح الجنة والنار . وغير المسلم منهم من اشتهاه ومنهم من لم يمل اليه بلا جنة ولانار . والقضية في الخمر أشد غرابة فهى عند المسلم طريق الى النار وعند بعض الاديان من الطقوس المقدسة . والمحرمات من الملبوس والمأكول والمسموع والمرأى والمستمتع به ذات رقعة واسعة في ساحة الأقتصاد تتناقض كلية مع القواعد المستنبطة عادة من المصالح الأقتصادية . ورب قائل يقول ان مجموع هذه العلاقات من الهوان بحيث انها لاتفسخ القواعد العامة الأساسية في السلوك الأقتصادى للبشر فأقول انه بعد التسليم بهذه الملحوظة يبقى التفسير البشري حيث هو من المتانة لأنه لايضيق بهذه الحالات ولا يتجاهلها أو يتهرب منها : انه يحتويها احتواء الترحيب لانها تثبت مركزه بقوة

زائدة في تقابله مع التفسير المادى فالأنشطة الأقتصادية المتماثلة في البلدان والأديان المختلفة تتيح للتفسير المادى فرصة الدخول في شد الحبل مع التفسير البشري باصرارها على انها علاقات مادية ولكنها لاتستطيع مطلقا الا من باب المكابرة ان تدعى أن رمى دنان الخمر في الماء بحكم الشريعة الاسلامية هو علاقة مادية شأنه شأن بيعها بالربح المركب في ديانه أخرى وان رجم الزانى في الاسلام هو عقوبة مادية مثل الغض عنه في قانون دنيوى أو في ديانه اخرى ، ومن صورها أن تهب المرأة نفسها للقوام على المعابد . وأن حجب الميراث عمن يُحجب عنه في هذا الدين أو هذا القانون هو في ماديته مماثل لتقسيم الميراث بالتساوى أو بالتفاوت بين الورثة في ديانة او قانون اخر . وان تحريم الربا هنا وتحليله هناك صورة واحدة للتعامل المادى مع الأشياء وان تحريم ازهاق الروح في الهندوسية والزام الناس بقتل الهوام والأحياء الضارة في الزرادشتية تعبير مادى واحد عن التعامل مع الشئ الواحد وتطول قائمة الأمثلة اذا استطردنا في هذا الباب الذى لايستطيع التفسير المادي ان يفعل فيه شيئا هو لايستطيع ان يمنع التفسير البشري من اي شئ يكون فيه البشر طرفاً فالتفسير المادي نفسه يستند في اقوى أسسه على عامل البشر فهو نفسه يُفسّر تفسيراً بشرياً .

ومن باب توضيح الفرق بين ما انا ذاهب اليه في التفسير البشرى وما يقودنا اليه التفسير المادى استشهد برأى مادى مشروح في ثلاثة أسطر : وردت في كتاب اسس الفلسفة الماركسية ـ تأليف ف . افانا سيف ، ترجمة عبدالرزاق الصافى من منشورات الطريق الجديد ـ الطبعة الرابعة ، العبارة الآتية في اواخر صفحة ٥٦ .

« ان العامل الحاسم في ظهور الأنسان ونشوء وعيه وتطوره هو العمل ، أى النشاط الانتاجى المادى . ولقد اشار انجلز الى (ان العمل هو الذى خلق الأنسان نفسه) » .

في منظور هذا الرأى يكون القرد قد ظلم نفسه لأنه لم يعمل فالعمل خالق الانسان . وانا اعكس الآية تماماً واقول ان الانسان خالق العمل ولم يكن يستطيع ان يعمل لولا اختمار الأنسانية فيه فقد اصبح انساناً على صورة من الصور ثم بدأ يعمل عملاً متميزاً عن عمل الحيوان .

قبل أن ينبثق في مخ الأنسان نور العقل يستحيل أن يكون قد بدأ عمل يفتح باب الأنسانية بوجه اى كائن حي ولو كان هذا ممكناً لوجب ان يستحيل كل الحيوانات الراقية الى بشر لأنها كانت تعمل مثل العمل الذى كان يقوم به الجد الأكبر للانسان قبل مئات الألوف من السنين . فلابد من ان يكون شئ ما قد حدث لهذا الجد الأكبر [والمقصود هو الصنف الذى كان هذا الجد الأكبر منتميا اليه فالصنف كله هو الجد الأكبر] وليكن هذا الشئ مايكون ، ال به الى نقلة نوعية اخرجته من دائرة الحيوانية أو خلقت فيه القابلية لهذا الخروج . وسواء كان البشر في أصله ابن الطبيعة الخرساء انتقل بطفره الى الانسانية دون جميع الأحياء أو ان يكون هذا المخلوق قد ركبت فيه الأنسانية بقوة قاهره قادرة دون جميع الأحياء فان مايميزه ومايزه في القديم الأقدم هو الصفة الجديدة التى حلت فيه أو انبعثت فيه وليس العمل الجديد الذى انكشف له دون جميع الأحياء . انك اذا ربيت القرد بين الطيارات والسيارات والمركبات الفضائية أو في الحقل ومدينة الألعاب أو في المدرسة والجامعة ووزارة التربية وداومت على تربيته نسلاً بعد نسل

الى مليون سنه [ان امكن] بين هذه الوسائل الفاخرة للعمل وفي هذا المناخ الراقى للتربية فسيبقى قرداً لايتزحزح عن قرديته الا اذا حكمت الطبيعة البايولوجية فيه أن تكون مجموع المؤثرات ، وليس العمل نفسه ، آيلة به الى الارتقاء . وحكم البايولوجيا لايدخل في اطار التغير المادى الذى ينشغل بالدنيا العاقلة ولا يتوقف صدور هذا الحكم على وجود طيارة أو مدينة العاب بل ربما كانت هذه الأشياء مؤدية الى ضعف ارتقاء الحيوان بايولوجيا فقد تكون الطبيعة الطليقة اقدر على تحريك الحيوانية الى اللاحيوانية .

واترك القارئ الى متابعة الكتيّب في الصفحات القادمة مع خالص التمنى له بالأهتداء الى نور اليقين في أية وجهة كانت .

وجهة نظر في التفسير البشري للتأريخ

في بعض اعداد صحيفة العـراق وجدت نفسي في اطـار صورة قلمية قدمني بها الاستاذ مصطفى نريمان الى قراء الصحيفة على عادته المستلطفة في رسم صوره الجامعة بين الامتاع والافادة . ومن محـاسن هذه التجـربة نقـل الصـورة للشخص المعنى دون الرجوع اليه في مجملها أو مفصلها ، بل دون اشعاره اصلا بما يحاك له في الخفاء من طريف النسج ومستملح التركيب كي تأتي مفاجأته بها تامة من كل وجه و ليس على مراحل وفي جرعات تذهب بقوة الوهلة ونكهة المناسبة . ويقتضيني الانصاف ان اقول ان الصورة كانت موشاة بحظ مَترَف من المجاملة لأسرة (جلى زاده) ولشخصي اذا اختصرت الى النصف كانت بقيتها حَرِية ان تستأديني العرفان بالجميل . ولربما كان خير مكافأة استطيع بها توشيـح (صورتـه) وتنميق هوامشها هي مشاركتي في تعميق اللون لبعض مساحاتها وتعديل مواضع من ظلها ونورها كي يكون انطباق الصورة على الأصل محبوكا بما يقلل مسافة التخلخل بينهما ما امكن . ولقد قيل قديما ان صاحب الدار ادرى بما فيها وهو صحيح لاسيما في امور تتعلق بالمعين الذي ينبع منه الرأي والأقتناع تجاه الوجود عموماً والأنسان خصوصا ، ذلك ان موقعهما في القالب المعنوي الـذي نصاغ فيه أوسع حجما وأجل خطراً من تفاريق المواضيع التي تتفرع من هذين الأصلين وتعشعش فرادي في زوايا من الوعي والنفس

ويستوي عندي من حيث الوضوح ان يكون المعين للرأي والأقتناع في وجداني ما يسمى بالخلفية الثقافية والمناخ الأجتماعي وعموم المؤثرات خارج وجودي الواعي أو ان يكونه تفاعل اداراكي واحساسي ووعيي مع هذه الأشياء أو ان تكونه ديمومة نظري في المعقولات والمحسوسات والمدركات بين تصديق وتكذيب لها وبين ضرب بعضها ببعض في المقارنات والمعادلات والعرض على الأمتحان ومايتبعه من استخراج احكام وقوانين تتوافق أو تتعارض مع احكام وقوانين أقرأها وأسمعها فاني في هذه الأحوال وما في حكمها أعي ذاتي و أميز بين اهداب الأستشعار التي تهتز في داخلي وأشخص الصور المرتسمة على صفحة وجداني واعرف اصحابها واحفظ لكل منهم نصيبه في ميراثي الثقافي فلا يعتور حسابي تداخل في الأنصبه أو ذهول عن انتمائها الى أصحابها ما كان ذلك في طوق انسان يأخذ نفسه بالتحنف في قسمة المواريث . وقد يحدث المحذور الذي لايدفع كأن ان أنتهى بخالص معاناتي الى رأى ثم أكتشف ان غيري كان قد سبقني إليه . الا انني لا احزن لذهاب ملكية رأيي الى انسان آخر إكتشفه قبلي بل أشعر بالوفرة والغنى في تأزير قناعتي بقناعة من هو أطول مني . وما زلت حتى الآن اعاني من الشك في عبارة وردت ضمن مقال لي غير منشور تقول : «والفلسفة عند هؤلاء مطية الى الطمع وليس رقيبا على السلوك» فلم استيقن هل هي من رشح ضميري ام هي من رواسب مقروآتي استقرت في واعيتي وتسربت الى دخيلتي ثم طفت الى النور بلا نسب ثابت يوثق انتماءها .

اقول هذا من باب رجع الصدى لكلام ورد في خواتيم الصورة القلمية - كما اذكر - يؤكد تأثري في افكاري بالأساتذة

الأجلة احمد امين وطه حسين وعباس العقاد . ويبدو من عدم استشهاد الاستاذ نريمان بالنماذج الكاشفة للتأثر أن المسألة في نظره نازلة منازل البديهية في استغنائها عن الشواهد . والواقع هو إن تأثر اي قارئ للعربية من جيلي بأولئك الفطاحل دليل ذكاء ونجابة لدسامة الزاد العقلي الذي قدموه في ميدان الفكر والأداب والتأريخ فما كل تلميذ يستطيع هضم الغذاء المعنوي الذي يهديه اليه استاذ بارع يرتفع في أماليه فوق المستويات المألوفة في ولائم الثقافة عموما ويكون مما يعيب متأدب هذه الأيام أن يفرغ شباكه من مصائد اولئك البحور . ولا أعدو الصواب حين أؤكد ان الغلة الفكرية التي تستقر في وجدان المثقف وهو يقرأ مقالاً او كتاباً في معارضة هؤلاء العمالقة يعود جلها أو كلها إلى فضلهم فليس من الميسور الا للقلة القليلة من النابغين أن يثيروا اشكالا فكريا يحرك الضمائر ويدفعها الى المعارضة ويكون من الصعب الذي لاينال ان تتكرر هذه الأثارة في الميادين المختلفة وعلى مدى زمن متطاول . فالأئمة والرواد أحرياء أن بستضاء بهم حتى في معارضتهم والأستدراك عليهم . فاذا وجدني القارئ فيما سأكتبه صادراً من وجهة غير الوجهة التي حددتها الصورة القلمية حول تأثير هؤلاء الافذاذ في وجداني وصياغة معقولاتي فاني لا اروم به الخروج عن نطاق التلمذة في رحابهم وانما هو تقرير الواقع الذي انا ادرى الناس به في حياتي فقد خشيت ان يعتبر سكوتي في معرض الحاجة الى البيان دليلا على رضاي بما قد شاع فتختلط حقيقتي بصورة لونها قلم مبدع يترجم اطيافاً تومض في خلد فنان .

واقول ابتداء ان المدى الفارق بين الاعجاب بالرأي وبين التأثر به وسلوك دربه شاسع واسع ، وكثيرا ما يعجب الانسان

بشيءٍ من الأشياء لدقة نسجه أو صعوبة مأتاه أو بعد منبعه ولكن لايؤمن بصحته فمن ذلك مثلاً توصُّلُ الدكتور طه حسين الى قرمطية المتنبي في بعض اطوار حياته لعلل بينها وسبل في الاستنباط سلكها تدق على الأفهام وتتوارى في طوايا المجهول ولكنى لم اقتنع بصواب الفكرة ذاتها لاسباب وجدتها مانعة من الاقتناع أو لقصور في الادلة عاجزٍ عن الأقناع . وها هنا مصداق القول بأن للمجتهد المخطئ ثوابا فما كل اجتهاد خاطئ مستدع للمثوبة أو للأعجاب .
ثم ان خطأ المبتدئ لا يمكن أن يكون خطأ في الأجتهاد بل انه عثرة فجاجة الرأي ليس الا . واولئك الفطاحل الثلاثة المذكورون هم بكل المقاييس مجتهدون سواء في هذا ان يقاسوا بأشراط الاجتهاد ذاته أو ان يكون قياسهم عن سبيل مقارنتهم الى عامة أهل زمانهم . وليس لي هنا أن احدد مكانة كل منهم في حسباني فهم بعد بلوغهم مراتب عليا من النضج والاكتمال تفاوتوا في قوة النظر ودقه الاستنتاج وعمق الأستنباط . وعلى حد علمي طرق كل من (طه والعقاد) سبلاً في المقال والمصال جاوزت ميدان الأجتهاد النظري الى حلبات الفاعلية والسلوك بأكثر مما فعله احمد امين في التزامه حدود البحث الاكاديمي . ويأتي العقاد في هذا الباب قبل طه فانه استهل شبابه بخوض السياسة ووظف إمكاناته الفكرية والادبية في الترويج لأهداف حزبية كانت له اثار بعيدة في قابل أيامه . ومن الواضح انه اذا كان في حياتهم نكوص عن الرأي والموقف جاءت مؤاخذة الملتزم بمطلق المعرفة خفيفة شفيفة بقياسها الى مؤاخذة المجتهد الضارب في العلم والسلوك . فياليت ان بعض ما وقع من مفارقة للرأي الأول من هذا أو ذاك لم تقع . . ولكنها وقعت فكانت كالغبرة على جبين القمر ما لبث ان تلاشت

في اشعاع النور الذي توالى بعد ذلك قرابة نصف قرن .

واذا كان الاعجاب لايدخل في معنى التأثر فان تلقي المعلومات في عامة المعارف من شخص بذاته أو من كتاب غير معروف المنتمي أو من مسموع في الاذاعة وما إليها أوضح خروجا من نطاق مفهوم التأثر فقد يمر بالتلميذ عشرات المدرسين والاساتذة يحشون ذهنه بكل صنوف المعرفة ولا يكون لأحد منهم أثر باق في سلوكه أو تفكيره . فالمعارف مواد أولية كالسمن والسكر معروضة في سوق الثقافة على كل من هب ودب فاذا كان من شأنها أن تطبع مدمنها بطابع موسوم وجب ان يتشابه عامة دارسي تلك المعارف في الرأى والتصرف وهذا ما ليس واقعاً بحال من الأحوال .

وليس يخلو من الفائدة ان اقول بأن اغلب الحقائق العلمية في الأمور التجريبية من فلك وطبيعة ورياضيات وما إليها ذات أثر محايد في دخيلة الانسان ، فالعلم بنواميس التلفزة وبالقيمة الغذائية للبلوط والحليب علم فاتر لايثور بالوجدان كما يثور به جملة واحدة في العقيدة الغيبية أو الآيديولوجيا السياسية المنقلبة دينا . وتكون للعلم التجريبي اثارة اذا هو حام حول عقيدة موروثة مستقرة في الوجدان فان القول بوقوع ظل الأرض على القمر عند خسوفه لايثير في حد ذاته وترا واحدا من اوتار التحسس والتوجس ولكنه يهيج الرواسب المتراكمة في الضمائر المتأثرة باسطورة الحوته والمنحوتة . فكل علم أو رأي تلقيناه في غير مواضيع الانسانيات يكون في المعتاد بعيدا من الأثارة وخارجاً عن إحتمال التطبيع . والكلام في هذا الباب يطول بما يضيق عنه المجال ويبتغد بى عن

مبتغاي في مادة المقال فقد توخيت أن اكشف للقارئ كيف يحصل اتساق خيوط الفكر نسيجاً عقلياً في وعيي ويصبح بعد الأقتناع بصحته مخزوناً ثقافياً موثوقا منه أجرأ ان اقيس به صحة الاشياء من حولي .

فكيف حصل اني تأثرت أو لم أتإثر بالأشخاص والآراء ؟

من اغرب ما اتفق لي بصدد تكوين الرأي ان تأثري بمقروأتي ومسموعاتي جاء من طريق النقض والرفض وليس من طريق القبول المستقيم والأقتناع المستجيب فانا لم اكن قط طيعاً في التسليم بما يلقي الى والرضوخ لافتراض صحته وقلما وجدت فكرة جاهزة في الامور القابلة للجدل نزلت محلا ممهدا في ذهني . ولربما حدث في ظرفٍ خاصٍ مانعٍ من وضوح الرؤية ان تسللت فكرة من الفكر الى ساحة قناعتي على غير توافق بينهما فبقى القلق الحاصل من عدم التجانس بين الفكرة الوافدة والقناعة المستقرة ينخز وعي ويستفز عصبي حتى ينكشف لبصري وبصيرتي معقد التعارض بينهما على صورة من الوضوح تجعل انقلاع الفكرة القلقة أمرا مفروغا منه في حكم البديهية . وكثيرا ما حدث اني رفضت بعد العناء رأيا من الآراء لعدم اتساقه مع الحقائق الموثوقة أو لتعارضه مع محصول التجربة فبقى حيزه بعد الرفض فارغا لا يملأه بديل مقنع فكان عدم ارتياحي من بقاء الفراغ في معقولاتي تخف كثيرا من امتلائها بما هو ظاهر البطلان أو صارخ التعارض مع قناعاتي . ولم يندر أن دامت الفجوة الذهنية عندي سنين لا اجد لها ملاءً فيما أقرأ ولا يساعفني مخزوني الثقافي بفائض يسيل الى ذلك الفراغ فيملأه ولا يترك فراغا بعده في موضعه الأصلي من وعي فقد لا تستطيع الحجة الواحدة ان تفسر جملة مسائل . واسوق لك مثلا

على ذلك في واقع معقولاتك فانت تعلم ان الشهر القمري هو مابين تسعة وعشرين وثلاثين يوماً وانه يحصل من دورانه حول الأرض فاذا قرأت اثناء تتبعاتك الفلكية ان الزمن الذي يستغرقه دوران القمر حول الارض هو مابين ٢٧ ـ ٢٨ يوما لم تجد في مخزون علمك الفلكي فضلة تفسّر الخلاف بين علمك القديم واكتشافك الجديد وتبقى مسألة الـ (٢٧ ـ ٢٨) يوما غصة فِي حلق قناعاتك حتى تساق اليك حجة من خارج عـملك ترفع التعارض الظاهري بين الزمانين . اذكر اني رفضت فكرة الأثير في الفيزياء والفلك يوم قرأناه في مرحلة الدراسة المتوسطة فقد كنت مؤمنا بصواب القول القديم الذي يقول ان حقائق الاشياء ثابتة ، وكان احساسي المؤكد بحقيقة المادة وكتلتها وصلابتها وثباتها مانعاً من قبول الأثير شيئاً مالئاً للكون بلا أية فجوة بين ذراته حتى تكون كثافته اكبر من كثافة الرصاص بمليوني مرة . فالأثير على هذه الصورة من الصلابة والكثافة يلغي وجود المادة التي يتكون منها العالم الملموس المحسوس ويحيلنا جميعاً الى مجرد (فكرة ، شبح ، تلفيق) اشد تهافتاً من الوجود الذي صوره الشاعر الصوفي في بيته المشهور :

كل ما في الكون وهم وخيال
أو عكوس في مرايا أو ظلال

ونتج عن ذلك في أول الأمر فراغ في صفحة معقولاتي الفتية في الفيزياء أدامه اصرار العلماء على فكرة الأثير . ولكن الفراغ ما لبث ان تلاشى طواعية بدوامي على عقيدتي وعدم بروز تساؤل

داعٍ للحيرة في كيفية حدوث الظواهر الفيزيائية والكيميائية دون أثيرٍ .

ومن الحقائق البسيطة التي اعرفها عن نفسي ان الشك في القول الموجب للشك انبثق عندي في طفولتي وكان والدي يردد في مجالسه نماذج من رفضي للخرافات التي يحكيها رواة الاساطير ، ويسوقها مثلا على فداحة الضلال الذي يغوص فيه الكبار بتصديقهم اسطورة رفضها عقل صبي .

ولقد لزمتني سجية الشك والرفض مدى العمر لامن باب الغرام بالشك واتخاذه فلسفة مصطفاة وإنما لالتباس النقص والخطأ بكثير مما سمعت وقرأت . ولو سردت لك حكايتي مع تكون قناعتي من رفض ما هو معروض لبلغ بي الجهد ويكفي ان اقول إنه ما من ميدان يجول فيه الفكر ويجوس الذهن خلا من تكرر تجربتي فيه باستخلاص الرأي عن سبيل نقض الباطل الرائج بكشف بطلانه ، ولم يندر أن وجدت دليل النقض من مناقشة دليل الاثبات دون الاستعانة بأي برهان من خارج نصه وقد تناثرت نماذج من مثل هذه المناقضة في ثنايا كتابتي بالكردية وفي بعض ما كتبت بالعربية ففي الصفحة (٨٧) من كتيب (اعادة التوازن الى ميزان مختل) مثال على ذلك في المامي العابر بدور الفرد في التأريخ ودحض المقولة المشهورة بأنه (اذا كان زيد من الناس لايقوم بالشئ الفلاني فان واحدا غيره كان سيقوم به) فقد جاءت المقولة نفسها مؤكدة لدور الفرد من حيث لاتريد لانها تؤكد قيام (فرد) آخر بالعمل وليس مئات الأفراد وجاءت العبارة التالية من باب زيادة التوضيح في خواتيم الصفحة المذكورة : (ولم يطلب احد من ذوي الرأي ان تكون ندرة العظيم اكبر من انحصار العوض عنه في فرد

أو فردين ، ولا ننتظر ان يكون المنكر لدور الفرد اضعف في دعواه من أن يكون سنده في ذلك الانكار وجود بديل أو بديلين فقط من بين عشرات الملايين من البشر) والمسألة مشروحة بصورة أوفى في موضعها من ذلك الكتيب واعود أليها فيما بعد لاتصالها بمادة هذه المقالة ، وسوف يطول بيانه .

ولا يظنن القارئ بي الظنون : فلست ازعم لنفسي مكانة (حي بن يقظان) في استكشافه نواميس الازل والابد من مستودعات الحكمة في ذهنه ، فما انا الا ابن العصر يزاحمني المقروء والمرأى والمسموع اناء الليل واطراف النهار ، ومنه رشدي وضلالي [. . . ان غوت غويت وان ترشد غزية ارشد] وقصارى شأني هو اني استنطق هذه المدركات بطريقة وافقت مزاجي وطابقت جبلتي . فاذا هدتني تجربتي الى النور كنت ناقله الى من يتلقاه ولا اصل في اكثر الحسابات تفاؤلاً الى غلة محتملة تدخل خرجي . ولعل المحنة ان تكون كامنة في عدم القدرة على التوافق مع الرأي الشائع بسبب من عدم الاقتناع فهي حالة شبيهة بالعيش في العراء . وليس من السهل المتاح على مدى العمر نسج مظلات فكرية يأوى اليها الضمير القلق بجمع اشتات الخيوط المنقوضة وغزلها قماشا سابغا يقي من الشمس والمطر . على ان هذا الذي قلته غيض من فيض وكم من جم لايقاس الى المحنة الفكرية الكبرى الأوسع الأضخم التي تهيج عصبي وتعصف بفكري وتصل أول ليلى بآخره وأنا سهران على شمعها المتقد في داخلي منذ اكثر من ثلث قرن . واساس محنتي في المسألة ان القضية اكبر من حجمي فهي من مقاس كاتب اوروبي في مرتبة (شو) أو (سارتر)

تصيخ له الدنيا وتولى كلامه اعتباراً وتحمله على محمل الجد ، ووراء كل واحد من الاسمين اللامعين مدارس تروج له ومراكز ثقافية تمده بمقومات البحث وبيوت نشر ترفع طواميره أعلاما فضلا عما يتنفسه من المناخ الثقافي في اوروبا المنفتح على مابعد اقصى اليسار الى مابعد أقصى اليمين . فالكلام في ضخام الأمور أوقع اذا صدر من فم شامخ ، شأنه شأن سائر متعلقات البشر . وما ابلغ ما قاله حمدي صاحبقران قبل اكثر من خمسين عاما في بيته الكردي الآتي معناه بالعربية :

انها سوق الدهر ، قيمة الاشياء فيها بمقامها
فالذباب اذا حل في الوجه الجميل شابه الخال

ان الفكرة الأساسية التي تشغلني منذ عشرات السنين أوسع من مجموع ما كتبته في مشارفها حتى الآن وليس الجزآن الاول والثاني من (مروّڤ و دەوروبەر ـ الانسان وما حوله) وما تناثر من آرائي في كتيب (اعادة التوازن . . .) أو في الأجزاء الثلاثة من كتاب (حاجي قادري كوّي) أو في كتاب (چەپكێك لە گوڵزارى نالى ـ باقه ورد من رياض نالى) أو في كتابي المنشور على حلقات بعنوان (بۆ ئەميرى حەسەن پوور له هەر كوێيەك بێت ـ الى امير حسن پورحيثما يكون) أو ما ورد في جملة من مقالاتي بدءً بالمساجلة الاخوية بين المرحوم الدكتور عبدالرزاق محي الدين وبيني في صحيفة (الحرية) سنة ١٩٦٠ [جمعت في كتاب بعنوان (من اجل الانسان في العراق)] ومرورا بما نشرته في جريدة التآخي وصحف اخرى كردية في فترة اشتغالي بالمجمع العلمي الكردي حتى منتصف سنة ١٩٧٨ وانتهاء الى مقالات غير قصيرة بعناوين مختلفة

في الصحافة الكردية حتى هذا التأريخ ، ما ذلك كله الا توطئات ومقدمات تسبر على صورة من الصور ضفاف اللجة الفكرية التي تلف في اغوار وعيي فلسفة العصر في التحليل المادي للتأريخ والسياسة والأجتماع تقلبها على وجوهها المختلفة وتعرضها على التجربة في واقع الحياة وعلى معيار المنطق المنتزع مما يسمى بالحقائق المادية لمعرفة مدى الصواب في مسلماتها وتداعياتها والأطمئنان منها الى راحة احد الاحتمالات الثلاثة الآتية : فأما الاقتناع التام بما تقول أو الرفض التام لما تقول او اخذها بالتعديل الذي يزيل تعارضها مع ما يثبت صوابه في برهان الفكر أو واقع الحياة . والحقيقة التي لاشك فيها هي ان الراحة القريبة المنال هي في رفضها التام أو قبولها التام ، والوصول اليهما ميسور على من يتعود سلوك الدروب المطروقة وتصديق الادلة المزجاة ولكن الصعوبة فيهما على طبعي كانت راجعة الى سجيتي المتأصلة من عدم الاستسلام للرأي بدون اقتناع فطالت معاناتي بمناقشة الافكار المادية عموما والمادية الجدلية خصوصا في منابعها ومسايلها وفي القضايا المتفرعة منها وما تتمخض به من انماط الكفاح السياسي وانسجام هذه الانماط مع المنطق والمعدلة والتفرس في ملامح المجتمع الذي تبشر به ثم مقارنة نتائجها في التطبيق الى نتائجها في الموعود وفي عشرات التساؤلات التي تنهض من تحكيم المادة ووسيلة الأنتاج والمرحلة التأريخية في انبثاق كل ما هو بشري في ابنيته التحتية والفوقية وفي عمق النفس وكنه الوعي وسر الهواجس وارهاص الاحساس السادس ، وفي الحب والبغض والأيثار والطمع، وغيرها جميعا مما يخرج عن الحصر من الشؤون التي ينفرد بها البشر دون العالمين .

واستفحل الاشكال في معاناتي لسببين أوليين احدهما ندرة الكتب والمصادر المعتمدة التي تناقش المادية من زاوية الانتقاد فاقتصر اتكالي على جهدي الذاتي حصرا . وثانيهما اني لم احتكم الى دليل من خارج العقائد والأدلة والأسس الفكرية التي تبنى منها المادية نظريتها في الجدليات ، فعرضتها على نفسها لاعلى غيرها وحكمت لها أو عليها بالنتيجة المتولدة من امتحان براهينها على مقياس المنطق في جوانبها النظرية الخاصة . وشهدت لها أو عليها بمدى تصديق الواقع الملموس لدعواها في الترفيه وفك الاغلال واشاعة الحرية ونشر الأخوة واطلاق القلم واللسان . والقيت نظري في الوقت نفسه الى مدى تفنيد الواقع أو تأييده لدعوى المدارس الفكرية والانظمة السياسية المدانة في المادية الجدلية . لدعواها في الحرية والعدالة الأجتماعية والنهوض بالحضارة عموما الى مستويات اعلى ، ذلك أن صواب وخطأ النظرية يظهر على قدر ما يتحقق أو لايتحقق رأيها في النظرية المخالفة لها فأن كفة الميزان الذي يدعى الرجحان تتأيد دعواها أو تتهاوى بما يظهر على حال الكفة الأخرى من ثقل أو خفة . وما كان ينبغي لي في هذا الميدان ان اغفل من مقاييس الأختبار مقياسين هما أدقها جميعا : اولهما مدى تصديق الواقع الذي اعيشه وأفهمه واتنفسه لأحكام الفلسفة الجدلية وتداعياتها ومقتضياتها فاذا لم تكن بي قدرة على تحكيم الواقع الماثل امامي في صواب وخطأ فلسفة توصف بالمادية والعلمية فكيف تكون قدرتي في استنتاج صوابها من احداث التأريخ المتقادم وحقائق الأوطان النائية ومبلغ علمي بها رأي أقرأه وخبر أسمعه ، ومهما يكن شأن الخبر والرأي المنقول عن الاشياء البعيدة فلن تكون قوته في الأقناع مقاربة لقوة اليقين المتولدة من

نطق الخبر الذي أنا صانعه أو مشـارك في صنعه مـع بني حارتي وبلدتي وعشيرتي . وكنت ارفض مطالعـة صورتي وصـورة أهلي ووطني من مـرآة النظريـات واستنكـر رجـوع عـامـة المناضلين والدارسين الى استفتاء (المدارس الفكرية) في شأن واقع منبطح تحت اقدامهم ومستعرض في مهوى انظارهم .

وثاني المقياسين ، سلوك الحاملين لشعارات الجدليـة وأين موقع تصرفهم من كلامهم وماصلة نشاطهم بنصـوص النظريـة وكيف تتنى المصلحة العامة من مواقفهم المتميزة عن مواقف عامة الأجنحة السياسية ولاتكون المصلحة حاصلة الا من سعيهم هم دون العالمين . وسنحت هـذه المناسبـة الفريـدة لقياس السلوك ومطابقته مع النظريـة في وثبة ١٩٤٨ فقـد كشفت كل الجهـات السياسية عن وجهها السافر ونشرت غسيلها في الشمس . ولم أبادر الى القـطع بأن يكـون الشخص الجدلى العـراقي نمـوذج عـامـة الجدليين في العالم وأبقيت احتمال التباين بين هـذا وذاك للزمن الاتى كي يكشفه ، فلقد كان الوقت في الاربعينات حين ولجت ضفاف هذا العباب مبكرا لصاحب النيف والعشرين عاما ، ولو كنت تسـرعتُ ما تبـدلت احوال الـدنيـا وبقيت الاشيـاء حيث كانت . وانا اذ لم اتسرع ماتغيرت المصاير أو تحولت الأحداث الى غير وجهتها فلم تكن تجربتي تتجاوز في الممارسة حـدود حجرتى ولاكان كلامى في التفهيم يتعدى عصبة من القرابة والصحابة .

كانتْ مناقشتي للنظرية محمولة على منطق الاشياء وشهادة الأحداث ومقياس السلوك من غير تشنج أو ممالأة أو اعتساف . وفي الاعوام الثلاثة الواقعة بين تخرجي في الحقوق اواسط ١٩٤٥ وبين الوثبة أواخر ١٩٤٨ لم يكن مقياس السلوك والتصرف متاحا ، فهي فترة سابقة على الوثبة ، فاتخذت الفكر معيارا أقيس به الصحة والخطأ وجعلت الواقع المشهود في وطني متكئاً للفكر احتكم اليه في رفض الاراء الفجة المتهافتة من مثل قولة ستالين ان الحركة الوطنية مظهر لصراع رأس المال المحلي لرأس المال الاجنبي المسيطر فلقد لمحت بديهتي سخافة الزعم بان طلاب المدارس واصحاب القلم المفاليس يثورون بوجه الأجنبي ويتصدون للحكم المستبد دفاعاً عن رأس مال لايملكونه ولايحلمون به . واهتديت الى ان المصلحة المادية بذاتها لا تدفع الناس الى النشاط وإنما المحرك هو ما يعتقد الانسان انه مصلحة أو ضرورة (مادية أو معنوية) وقد يكون مخطئاً في تصوره ولربما ضحى بكل المصلحة الموجودة والمرجوة في سبيل فكرة غارقة في الضلال . ولقد تراكم عندي خلال عامين بعد تخرجي في الحقوق محصول من الرأي المستل من نقض الآراء ورفض العقائد شرحته في نحو سبعين صفحة تحت عنوان (شئ من النقد) اخذها مسؤول في الحزب الديمقراطي الكردي لوزن ما ورد فيها من تصورات وعرضها على النقد في مقدارها الواقع ضمن العقيدة النظرية للحزب . وضاعت مني هذه الصفحات فقد زعموا انها ارسلت الى خارج العراق . واذكر اني استهللت انتقادي بدحض ما يردد من ان الحاجات المادية من أكل وشرب ووقاية وملجأ هي علة التطور عموما فمن الواضح أنها لم تخلق في البهائم حافزاً الى أبسط البسائط

وأتفه التوافه مما هو داخل في مفهوم التطور التأريخي والاجتماعي فخلصتُ من ذلك الى ان علة العلل في التطور الأجتماعي هي الخواص التي تفرد بها البشر دون سائر الأحياء وأولها العقل . فالمادة بذاتها عاجزة عن تحريك شئ لايستطيع أو لايريد أن يتحرك ووجدت ان تقديم المادة الميتة الفاقدة للحياة والارادة على البشر في تعليل التطور الاجتماعي خطأ اساسي يلابس كل الحسابات المتعلقة بالانسان وهو افدح من وضع العربة امام الحصان ـ ففي هذا راحة للحصان ـ وازدادت رؤيتي وضوحا مع ازدياد دقتي في الأشياء وتنامي تجربتي في الحياة وذخيرتي من الثقافة والتثقيف الذاتي بالدرجة الاولى فاتضح لي فساد القول بأن وسيلة الانتاج ومرحلة التطور اساس الأبنية الفوقية لدى البشر فالبديهة تنفي ان تثمر وسائل الانتاج المتماثلة ومرحلة التطور الواحدة ابنية فوقية مختلفة فكيف يصح التسليم بأن المحراث والأرض وحبة القمح والنظام الاقطاعي تلد في بلاد (ج) توحيدا وفي (ق) تعدد الآلهة وفي اماكن اخرى ديناً من نوع ثالث ورابع وكيف يحل نكاح الأخ اخته في ضفة للنهر ويحرم في الضفة الأخرى على أحكام النول والمقلاع وما الصلة بين الناعور واكتشاف الجذر التكعيبي !! فاهتديت بما يشبه الاهتداء على ضوء الشمس الى ان اختلاف الابنية الفوقية نابع من اختلاف الناس في خلفياتهم الثقافية وتجربتهم في الحياة وإرثهم في التصور والعقيدة والقيم الاجتماعية رغم تماثل المحراث والشبكة والناعور والثور في كل البلاد . واستنطقت التأريخ فقال ان الشعب الكردي غير ابنيته الفوقيه وكثيرا من ابنيته التحتية الموروثة من الاف السنين في فترة وجيزة من الزمن اول الفتح الاسلامي لبلاد الكرد وبقى الثور والنول والماء

والشجر والمزرعة وكل مصادر المعيشة هي هي على ما كانت عليه من اربعة الاف عام مع ان الدين بنظر المادية الجدلية بناء فوقي . لقد وجدتُ ان الرمل والجمل والبداوة أخرجت في العربية روائع من النظم والكلام المنثور عجزت كل بداوات الأرض ورمالها عن اخراج عشر معشارها كماً وكيفاً . كل ذلك وغيره من الأمور في حيثيات (الاجتماع) بدأ يستقر رويداً رويداً في وجداني بدون قلق وعلى بعد سحيق من التأثر بأي شخص معين بالذات وذلك عن سبيل احلال الانسان وصفاته ومقوماته الفضيلة والرذيلة محل المادة المجردة من الارادة ووسيلة الانتاج التي هي نفسها من خلق البشر ، والمرحلة التأريخية العاكسة لقدرة البشر والمتولدة من تجربته بجوانبها المشرقة والمعتمة ، السليمة والسقيمة ، وليس الخالقة لقدرته وتجربته . فالبشر يتصرفون في الاشياء بغباء أو بذكاء وينتهون من تصرفهم الى نتائج تريحهم أو لا تريحهم ويستخرجون قواعد في السلوك وفي الطبيعة والرياضيات قد تكون على غاية الصلاح وقد تكون على غاية الضلال ، وهم بتفاوتون بطبيعة تجربتهم الواسعة في الفهم والعلم والخلق والعقيدة من بلد الى بلد بل من شخص الى شخص في المدينة الواحدة وينتهون الى قناعات مختلفة في نظرتهم الى الكون وتعليلهم للأشياء رغم تقارب ظروفهم المادية وتماثل وسائل انتاجهم فيجد دارس الفلك في اثينا قبل ألفي سنة ان كسوف الشمس هو وقوع القمر بينها وبين الأرض على حين يكون حاصد الفمح بجوار أثينا معتقدا بغضب الآلهة سببا في زوال نور الشمس . ولكل واحد من الامور الواقعة ضمن مفهوم (الاجتماع) طول وعمق وتعقيد وتشابك لم ينهض بفك عقدتها أي تعليل لايعتبر البشر هو العامل الفاعل الأوحد في

دنيا (العقل والذات ـ دنيا البشر) فلن يستطيع اي تعليل مادي شرح امتناع الرجل المسلم من تزوج المرأة المشركة ولا امتناع تزوج البنت الفلاحة المسلمة من الفلاح غير المسلم ورضاها بالزواج من ابن الاقطاعي المسلم وهو عدوها الطبقي في العقيدة المادية . لقد مضت اكثر من ثلاثة عشر قرناً على تجاور المسلم والمسيحي واليهودي في بعض المدن والقرى دون أن يتمكن توحد وسيلة الانتاج وسوق التعامل واختلاط المصالح من رفع الحواجز النفسية بينهم ولا استطاع تجاور المسلم والهندوس لبضعة قرون من حل اشكال (البقر) في معتقداتهم وهم من أرومة واحدة ولسان واحد وأرض واحدة ويكادون يكونون من بيت واحد . وكل اعتراض يثار بوجه هذه التساؤلات له مايدفعه في التفسير البشري ولكن ليس للمادية المقدمة لدور المادة على دور الانسان في التأريخ جواب عليها الامن طرق الذكاء المفرط الذي يستطيع الدفاع حتى عن عملية رياضية مثل : (٢×٢ =٧) . وعايشت هذا النمط من اقامة الأستشكال ودفعه عاما بعد عام مختزنا غلته الفكرية في ذهني بسبيل رسم خارطة تامة في تصور التأريخ والأجتماع تتساوق جوانبها المختلفة بلا تمحل أو تعنت أو تأول حتى اذا تصديت لتفسير اختلاف الأخ عن أخيه كان ما أقدمه من تفسير بشري لذلك الاختلاف مجزيا في نفسه ومغنياً عن اقتسار الدليل والتلاعب باللفظ وناهضا بالتوضيح حيث لاتفصح المادة الميتة الخرساء عن شئ مريح . وقد استغرق مني ذلك عشرات السنين .

واذكر مما ورد بأوليات تلك الصفحات السبعين في تعليل الاساطير تعليلا بشرياً جملة واحدة صارت فيما بعد المنفرج الذي

خرج منه الجزء الثاني من كتاب (مرۆڤ ودەوروبەر ـ الانسان وما حوله) الذي اتممته في حزيران ١٩٧٨ وتسنى نشره في مايس ١٩٨٤ ، فقد قلت : (وليس قصارى العقل ان يمتنع عن تعليل الاشياء التي لايفهمها ولكنه يعللها تعليلات خاطئة) فلقد عاشت هذه العبارة وغيرها من مضامين تلك الصفحات في ذهني ونسجت خيوط نمائها على كل الجوانب . وانكشف لي على الأيام بوضوح نافٍ للتردد من شأن الصفة المميزة للبشر المتمثلة في عقله [واترك الكلام عن الذات ـ النفس] ان للعقل محصولا مضيئا من نشاطه الايجابي المدرك للحقايق والمهتدى الى النواميس الصحيحة للأشياء والكاشف لمجولاتها والمستخرج للنسب السليمة في الموازنات والمعادلات يتنامى بتنامى قدرته على الادراك بدءً بالزمن الأول الذي تفتق فيه مخه عن الأحساس الواعي المحدود الوانى البطئ وتدرجا الى النتائج المحيرة التي بلغها في الغوص على مجهولات الكون واستكناه مغيباته واستشراف احتمالاته التي كبرت حتى على قابلية استيعابه فاخترع العقل الألكتروني والحاسبة في ضبط دقائقها وقواصيها واعاصيها فقد كان تفاعل العقل مع الكون الأوسع بكل ابعاده هو الأب والأم للحضارة والتأريخ والأجتماع بعلومها وفنونها وجنونها وهو المستنبط الأول للألة التي يذلل بها العراقيل ويأتي المرة تلو المرة بوسائل للانتاج والكشف والسبريزرى آخرها بما سبقه . ولايصح في الفهم السليم رد تقدمه الى فضل الألة التي ابتكرها هو ولم تنزل عليه من وراء الافق ولا تقدمت إليه في كرم المؤثر ، فلقد توقف (اختراع) البهائم لوسائل العيش عند قدرة غرائزها البسيطة على الأستنباط ولايهديها تكرارها للتجربة الواحدة خلال مائة الف سنة الى تحسين شئ من تلك الوسائل أو

تنويعها ولا يحصل لها من التطور الا ذلك القدر الضيئل مما نسميه بالتطور البايولوجي الذي يشمل الأحياء كلها بما فيه الانسان نفسه . فمقولة (الحاجة ام الاختراع) لا تستقيم بمعناها التام في غير عالم الأنسان فقد عجزت (حاجة) البهائم الى حفظ الذات عن هدايتها الى اختراع آلة ترد بها هجوم الرمح والسهم والبندقية وبقيت تلجأ الى الفرار والتوارى كما كانت تفعل منذ مليون سنة مضت مدفوعة بغرائزها العجماء التي لاتتغير ولاتتقدم فانقرض منها ما انقرض في رحلة الوجود واوشك بعضها على الاحتضار ونجا ما ساعدها تكاثرها المفرط أو مناعة مواطنها .

وان للعقل نشاطاً سلبيا هو الضلال والظلام بعينه يكاد يوازن بفداحة اخطاره ما يقدم نشاطه الايجابي المضئ من صنوف المعرفة والتقدم والرخاء . فالعقل يحكم في الاشياء التي يفهمها حكما صائبا منفتحا على الخير والبركة ويحكم على المستغلقات والمغيبات على نحو مناقض فيأتي بالتفسير الأسطوري لظواهر الطبيعة ومرئيات السماء وحيثيات وجوده ويفتح بذلك على الانسان هوة كثيفة الظلام سحيقة المهوى يتخبط فيها وجدانه مئات السنين وألوفها ويديم هوسه بها على نحو من الدروشة والهلوسة لايليق بالبشر ، و المشاهد الذي لايخطئ فيه النظر هو ان الخرافة أطول عمرا من الافتراضات العلمية التي يثبت بطلانها لان الخرافة تكون في العادة مرتكنة في وجودها على المغيبات المسربلة بالقدسية فما كان لكتلة من الحجر أن تعبد الف عام لولا ما يعزى اليها من صلة باطلة بالغيب . ولقد كان من حقي ان اسمي الجهل والاسطورة والخرافة والاستدلالات الضالة وكل انواع الظلام التي يبتدعها النشاط السلبي من عقل الانسان بأنها (الوليد غير الشرعي) للعقل .

فخليق بالعقل ان يلد النور والرشد والامان والكمال فيكون ابنه الشرعي بحق وحقيق . ولاحظت ان استعداد العقل للاستحالة الى السلبية شيئ مخيف عظيم البلاء ، فهو لا يقتصر على ولادة الظلام بتعليلات خاطئة بل هو قابل لأحالة الفكرة المشرقة الى ظلام فقد يكتشف نهجا صحيحا في النظر والسلوك هو النور كله في وقت من الاوقات ولكن ينطوي زمانه وينقضى اوانه ويتخطاه التقدم الى نظر وسلوك جديدين يستلزمهما الوضع المستجد . غير أن العقل يتدروش على النهج القديم ويتحمس له ويضحي من أجله وقد تأخذه العزة بالأثم فيقف وقفة الشهداء بوجه الداعين الى التغيير ويحاول تجميد الحركة الاجتماعية عند حدها الذي بلغته في تأريخ معلوم . وفي احيان كثيرة تكون الغالبية من أصحاب هذا النمط من الفكر المتجمد هم الدارسون والاساتذة والصفوف المتقدمة في النضال السياسي . وأضيف الآن في هذه المناسبة ان أتعس تراث تلقته الأنسانية من مخلفات الثورة الفرنسية هو تكريس وتقديس العنفوانات والتمزقات والمواقف الحدية المتطرفة التي أكلت الثورة وقضت على فرسانها وخلقت دوامة لم تستطع ان تدارى نفسها وتستقر على واقع سليم غير مهزوز وإنما جاءها العلاج من حيث لاتحتسب بان استفرغت الدوامة قدرتها على الفتل والقتل والقمع والقلع فهدأت الامور واستطاع أصحاب النظر السليم من خارج الثورة إقامة فرنسا على قدميها بعد معارك نابوليون . وربما وصل غلظ الغشاوة على الافكار حدا فسمّت ذلك الخلاص بالثورة المضادة : فليكن لها ما تريد ، وبورك لها في تسمية ضاعفت عمر الضلال مرارا فكالت المديح لانتحار الثورة وتركت الباب مفتوحاً لمذابح غبية مماثلة تحدث بعد قرنين مضيا وفي نور

الذرة وريادة الفضاء . وسيتركون الباب مفتوحا الى ابد الابدين . لقد وجدت كبار المفكرين في المادية الجدلية يقدسون الجانب المظلم في الثورة الفرنسية ولم ازل أجد عامة الثوريين يكررون كثيرا من اخطائها ويتركون مائة سبب داع الى الوحدة في سبيل سبب واحد للخلاف .

ويلتقي المشعوذ والمتدروش والثوري المتطرف في سلوك الدرب المظلم وان اختلفت مصادر الظلام من هذا وذاك . وليس امامي مجال التوسع في شرح جوانب النشاط السلبي للعقل ولا استطيع هنا ان اجمع اليه ما تفعله (الذات او النفس السلبية) الضالة اذا اقترنت بالعقل السلبي فالمسألة لايحويها مقال ولا كتاب ولا عشرة كتب ، ولا ينهض بها شخص واحد فهي أوسع من ان يرتادها ويقطعها بالطول والعرض سائح يتعكز على قلمه ، فميدانها التأريخ كله من ابتدائه الى يومه الراهن وما بعده في مستقبل لا يعرف منتهاه فنحن لم نزل بأول الطريق في استنقاذ البشر وعقله وذاته وتأريخه واجتماعه من اغلال وسيلة الانتاج من المحراث والشص والناعور واطلاقه في الدنيا الفسيحة المنداحة الى غير نهاية . وما ولجت هذا الباب الا استطرادا من إستعراض مسار فكري ومنحاه في نفسير الاشياء واقتباس الرأي من نقض ما أراه بعيدا من الصواب أو الكمال .

ولقد يقول قائل بأن اغلب ما مر بيانه في الاسطر المتقدمة من دور العقل شيئ مطروق من عامة المفكرين من خارج المادية الجدلية وغير الجدلية وهو قول صحيح في مجمله اوافق القارئ عليه ولكن الجديد فيما انا ذاهب اليه شيئان اساسيان :

أ ـ وجوب القول باولوية العقل حتى في المادية عموما والمادية الجدلية خصوصا وذهبت في دعواى الى أن مايحذره المادي من فكرة (الثنائية) في الاقرار بالدور الأول والمستقل للعقل [للصفات الانسانية عموما] شئ مردود بنصوص المادية نفسها فمادام العقل [وكل صفات الانسان] بنظر المادي هو وليد تطور المادة دون تدخل من الغيب فقد انتفت الثنائية اصلا ولا ينبغي بعد ذلك للمفكر المادي أن يتوجس شرا من قيادة العقل للتأريخ والأجتماع ، اعني قيادة الانسان . فجاء تعليلي للمسألة من صلب المادية نفسها لامن خارجها وفي هذا قطع الطريق على المعترض بان الادلة المعروضة مرفوضة في الماديات .

ب ـ ما رأيت احدا ممن قرأت لهم تطرق الى الدور المستقل والمدمر للنشاط السلبي من العقل [والذات ايضا] فقد جاء قول اصحاب الرأي في الشر والجهل هوامش ثانوية فيما قالوا وما كتبوا وما بشروا به . واذا كان منهم من كتب في ذلك على نحو أوفى فقد خانني الحظ في الالتقاء بما كتبوا . ومن البديهيات في نظري ان كلا النشاطين السلبي والايجابي هما أصل واحد وعقل واحد يتصرف سلبا وايجابا فالعقل الذي يفهم هو نفسه الذي لايفهم فلا ثنائية في اساس الفكرة . ولا تلازم بين الفكر النير والذات الخيرة فقد يكون الفطن الحاذق الفهامة اخبث الناس وجدانا ، وتنعكس الأية فيكون صاحب العقل الخرافي من اكثر خلق الله حبا للخير . وقد يلتقي العقل النير بالذات الخيرة ويلتقي العقل المظلم بالذات الشريرة على أقدار متساوية أو متقاربة أو متفاوتة من النور والظلام والخير والشر فليس في حيثيات البشر ما قد يوصف بانه (المعادلة الواحدة المحتومة) على ماهو ملحوظ في الطبيعة من نواميسها الأزلية الأبدية

الثابتة ذات الوجهة الواحدة فالكائن البشري الذي تكون له مائة صفة مميزة ويتصرف بها في احوال مختلفة أمامه عشرة الاف احتمال للتصرف نتيجة لتفاوت مقدار كل صفة في معادلة السلوك .

وثبت عندي ان البشر هو العامل الايجابي الوحيد في التطور التأريخي والأجتماعي في كل الأطوار والأحوال وليس ماسواه من مادة وحيوان ونبات إلا (امورا واقعة) غاية شأنها في التطور ان تكون مواضيع يتصرف بها البشر ويتعامل معها سواء كان ذلك بفهم أو بغباء ، وأيا تكن نتيجته من انتصار او انكسار ، وقصارى قصاراها في التغيير ان تكون مغرية لارادة الانسان وأمله أو طمعه نحو المبادرة والحركة . وينطوي سماط التأريخ والاجتماع بزوال الانسان في عالم لاتنبض به الا الغرائز . ويتجلى تفرده في ميدان التطور على صورة أوضح حين نقول ان ازالة عقله دون وجوده تترك الدنيا بلا تأريخ ولا اجتماع حتى ولو بقيت كل مزاياه الأخرى سليمة . وسخفت إعتراض المعترض حين يقول إنه لولا المادة ما كان للبشر شأن في التغير والتقدم وما إليه فنحن لا نناقش فكرة كون البشر إلاهاً خالقاً حتى نحتاج في تفسير التطور الى خلق البشر للمادة من العدم ثم المباشرة بالتصرف فيها ، فالمادة والاحياء والبشر موجودون على حد سواء ثم تنقطع المادة الميتة عن الكائن الحي لفارق الحياة بينهما . وينقطع بعد ذلك الكائن الحي عن الكائن العاقل [البشر] لفارق العقل بينهما ، فليس للمادة الميتة بايولوجيا وليس للاحياء من غير البشر تأريخ . واذا اردنا التعنت فالباب فسيح فان البشر نفسه مخلوق من المادة ويقتات بالمادة ويركب المادة ويستدفئ بالمادة وهكذا . . . ولكن حقيقة الأمر هي

أنه كلما زادت كمية المادة في استعمالات البشر ودفع حاجاته ثبتت سيادة البشر اكثر واكثر وظهر رضوخ المادة وطواعيتها اكثر واكثر فبقدر طول باع البشر واتساع قدراته يكون تسخيره للمادة وبسط سلطانه على رحابها واشباع رغباته منها .

غير اني في انشغالي بالفلسفة المادية لم أقتصر عليها بترك غيرها من المعارف ، فلقد كنت ولم أزل مولعا بتنويع القراءة واجد لذة منعشة في كل موضوع كتب بعمق وصدق وان كان اغلب المواضيع المطروقة خالية من الاثارة ومن مشاغلة الفكر اوقاتاً متطاولة ، فالملحوظ ان خطورة المادية الجدلية تأتي من كونها فلسفة وسياسة واقتصادا ونمطاً من المعيشة والحياة الأجتماعية لاينسج على منوال غيرها وتشمل نظرتها الوجود كله وفي مقدمته دنيا البشر ومصير حضارته . وكان من نصيب العراق ذيوع هذه الفلسفة في ربوعه وتغلغلها بين انشط فئاته من الشباب المتعلم واصحاب الريشة والازميل والقلم وما من فلسفة اخرى دنيوية اطبقت مثلها على شغل اليقظة وحلم النوم ووهم الخيال فكان من قبيل طبيعة الاشياء ان تصرفني عن التمادي في التحليق مع الاطياف والانغام بعيدا عن الارض التي يشتبك عليها الشباب في صراع مع نفسه ومع غيره مدفوعا بقوة المادية الجدلية الى تجربة مثيرة جديدة عليه وعلى الناس في محيطه . ولو تركتها ماتركتني فهي تقسم الناس طبقات وفئات وشرائح مسمرة الى وجهتها بعقائد نابعة من الانتماء الأجتماعي والمصلحة الاقتصادية تستمد منها رشدها وضلالها وتتقمص لبوسها اما اخلاصاً واما خيانة ووجدناها في سانحة ١٩٥٩ تقيم من حماتها رقباء على البيوت فيرصدون دبيب التآمر بين

ساكنيها ويحصون خطاهم نحو المزالق والمستنقعات وما الى هذه الترهات . فكان بعدها السحيق عن الحق والصواب في قولبة الناس على مقاساتها ووسمهم بميسم تراه هي منصفاً ويشهد الحق انه مغرق في العسف ، كان ذلك حافزا لي من واقع الأحداث نحو مضاعفة الجهد في استكناه مظان الاسباب الداعية الى اندفاع معتنقيها نحو العنفوان الذي يرفضه كل قياس اتخذ من المصلحة والمعدلة اساساً . كنت أجد القزم الذي لاماضي له في التضحية والنضال يثنى قامة عملاق في هذه المعاني ليذرع ابعاده فيفصل ثوبا محبوكا عليه من قماش العمالة والضلالة . وكان واضحا في تقدير اقل الناس احساساً بالمخاطر مآل الامور ومصير البلاد والعباد . ولم يكن في طوقي الا ان احذر بالكلام واعبر بالموقف ، حتى تسنى في صيف ١٩٦٠ نشر مقالاتي في جريدة الحرية عكست جزءً من التجربة المرة ووصفت شيئا من الدواء الشافي . وكنت اهتديت في رحلة تثقيف الذات ووزن الأمور بميزان المنطق المنتزع من واقع الأحوال وداعي المصلحة وحكم التأريخ إلى انه لاجدوى من الدعوة الى وحدة البروليتاريا من سائر القوميات في العراق وترك القوميات نفسها تحترب وتعتصب فما البروليتاريا الا جزء قليل من كل كثير في هذه القوميات وابرزها القومية العربية وبعدها الكردية . ولعلي لا اعدو الصواب اذا قلت اني كنت الصوت الكردي الوحيد المجاهر في هذا الاتجاه وقد فرض منطق الضرورة نفسه فيما بعد على جميع الأطراف التي كانت تناقضني في تلك الأيام فدخلت تباعاً بعد وفاة عبدالكريم قاسم في تحالفات واتفاقيات وجبهات مع القومية العربية خاب بعضها وأثمر بعضها على

استحياء . وتعرف كل الجهات اني بقيت في معتكفي بعد تلك الكتابات انعم النظر واديم الفكر واحرك القلم في الأمور من دون ان احضر في الولائم وما مشاركتي في محنة الوزارة سنة ١٩٦٤ الا واحدة من أسوأ نتائج تمسكي بالموقف فقد كنت داعيا الى السلام ونبذ القتال فلما تحقق ذلك في ١٠ شباط ١٩٦٤ كان من طبيعة الأشياء ان يشارك في المسؤولية كردي يمثل الجانب الداخل في السلم ، وكان من سوء حظي أن وقع اختيار بغداد على بالذات . وارضخني منطقي الى عدم رفض التكليف لان ذلك يعني إني اطلب من جميع الناس رفضه فانقض بيدي جهودي الصادقة في احلال السلام .

وتوسلت بالأحتمال الوحيد المقبول ذريعة لدفع المسؤولية عني الى غيري فعلقت قبولي للتكليف على رضا الجهات السياسية الكردية باجنحتها المختلفة ، وتأخر لهذا السبب صدور المرسوم بتشكيل الوزارة ثلاثة ايام كاملة ريثما سافرت واتصلت وحلت المحنة بحصول الرضا من الجميع ولا حول ولا قوة . . واقول اليوم بعد تكرار التجربة واستشفاف الآتي من الماضي : عسى أن يتسع طوق الامكان لجمع الشمل الى اقصى مداه و«كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته» فادخلوا في السلم كافة !! وتأتي مسؤولية القومية العربية قبل غيرها فهي المرجوة ان تستنفد الجهد في ابطال اي عذر مقبول لدي هذا أو ذاك يحول دون الوئام . و«ادفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم» و «اهدنا الصراط المستقيم» في اجل ما تلتقي به الهمم والذمم من توحيد الصف وتمتين العرى وتصفية جو الدار باثارة الشرار والغبار في وجه

المتربص بنا والكائد لنا وبعداً للقوم الظالمين ، وعذرا مني للقارئ في فذلكة ساقها الأستطراد فلزم شرحها في حكم الضرورة .

وبقيت متابعا نشاطي الفكري واختزان القناعات المتولدة من رد الاراء المنقوضة في حسباني واغناء مخزوني النظري بالأحداث تقع هنا وهناك وكثر افلاس اسس المسلمات وكان من اوائل ما أفلس في موازين السياسة والاقتصاد العالميين مبدأ فائض القيمة فلم تعد أية جهة قادرة على التأثير في اليمين أو اليسار تلتفت الى قياس أجرة العامل ومورد الفلاح على معيار يكشف زيادتها أو نقصانها عما يستحقون وطغت المسائل الكبرى من كفاح الشعوب وحرصها على مصيرها وتشابك الاستراتيجيات العظمى واشتداد الحرب الباردة ـ الساخنة في مواطن كثيرة ـ طغت على هذه النواعم إلا في شكليات جوفاء وعلى اطراف ألسنة الساسة عند الحاجة الى التشدق والتحذلق وصار كسب رئيس حكومة من الحكومات اهم في نظر اشرف شريف في السياسة الدولية من صون أو هدر كل الحقوق المادية أو الادبية على خارطة الشعوب . وكانت الشكوك تساورني منذ مدة طويلة في الكمال الذي يعزي الى نظرية فائض القيمة فقد كنت . . اعجز ويعجز معي الآخرون عن تفسير افلاس فلان وفلان من اصحاب المشروع الاقتصادي على ضوء هذه النظرية فكيف يفلس وقد امتص دم عماله وفنييه ؟ وواي دم هذا الذي لم يمتصه فآل الى افلاسه ؟ واين هذه النظرية من تفسير اجر الممثلة وراقصة البالية البالغ نصف مليون دولار بتحديد المظان التي نبعت منها فوائض القيمة فهل هي دماء العمال وصغار الموظفين والفنين والكمبارس في الاستوديو ام هي دماء ملايين المتفرجين من دافعي ثمن تذكرة الدخول الى قاعة السينما ؟ وماذا

تقول النظرية عن ثروات مئات الملايين من أصحاب المهارات الرائجة في الطب والهندسة والعقول الالكترونية والتعدين ووالنبات والرقص والملاكمة ومصارعة الثيران والطيران والسكك الحديد والسيارة والباخرة والمطاعم والمشارب ودور الازياء والصحافة وما لاحصر له من مقدمي الخدمات في الحلال والحرام الحاصلين على اجور فاحشة فيحتار العقل في استكناه المظان الحقيقية التي تجمعت منها هذه المبالغ الهائلة فرفعت اولئك العدد الضخم من الناس الى مستويات المعيشة الفخمة فلقد يكون الفقير الكادح المسكين الذي بنيت على أحواله نظرية فائض القيمة آخر من تناله عملية (امتصاص الدم) في تكوين تلك الثروات .
واين موقع البروليتاريا في هذه التشابكات الاقتصادية من ناحية ذهاب دخلها الى مجاري فائض القيمة ؟ الخلاصة ان المشكل في تعقيدات فائض القيمة لم يكن محلولا في رأيي على النظرية التي طرحته ، وهي على اي حال نظرية سياسية ثم اقتصادية ، تستهدف غاية مرسومة في الكفاح الطبقي وكفاها صحة وسلامة ان تفي بالغرض في اثارة المسحوقين . وكنت في غالب الأحوال أميل الى اعتبار (فائض القيمة) أو حساب الربح والخسارة صداعا وصراعا بين المنتج والمستهلك فالسلعة اذا بارت في السوق اوقعت الكارثة بمنتجها ولا يفيده كم من الدماء كان قد امتصه من عماله ومستخدميه . واذا كان منتج القرن التاسع عشر وما قبله يجد الفسحة في ابتزاز المكسب من العامل والمستهلك فقد انقضى اوان ذلك وزالت عن نظرية فائض القيمة صفة الصحة المطلقة خاصة بعد دخول العامل نفسه في الاستنفاع من المستهلك فهو في ايامنا هذه قد يشارك رب العمل جزءً غير يسير من صافي ارباحه .

وكرت السبحة ـ كما يقولون ـ في تهاوي المسلمات القديمة وأصبح نداء (يا عمال العالم اتحدوا) من مخلفات التأريخ بعد انبعاث الخلاف بين الدول والأحزاب التي مشت زمانا على درب هذا النداء ، وظهر لي من ذلك ان النداء بالأصل لم يكن دعوة الى شئ ممكن الحدوث فقد ثبتت استحالة الاتحاد ، او الصداقة في الأقل ، بين حكومات وأحزاب في طوعها ان تتحد وفي مصلحتها ان تتحد ومن واجبها ان تتحد ولكنها لم تتحد فكيف كان بالامكان ان يتحد قبل مائة واربعين سنة عامل من لندن مع عامل من نجد وعامل من الفليبين وآخر من الهنود الحمر وليس بينهم فهم مشترك ولا اتصال ولا وحدة مشاعر ولاتماثل احوال ولا اي شئ يمكن ان يوحد بين الناس ، ولم تكن وسائل المواصلات والمراسلات المتاحة في هذه الايام موجودة في ذلك الزمن لكي يقرأ المستر سميث رسالة العم بهنس أو يتلقي گونزاليس برقية كاكه ازاد من أقاصي الارض . وواضح ان الدولة الاولى التي تشكلت تحت شعارات الجدلية لم يكن تشكلها بفضل ذلك النداء فقد ساعدت ظروف استثنائية خارقة وقيادة نادرة الوجود على تشكلها . غير ان النداء رغم عدم واقعيته احدث بما فيه من اثارة لنوازع الفقراء نحو الشبع احدث دويا وحركة ومشغلة لفت العالم واقامت الدنيا ولم تقعدها ، ويمكنني القول بان افدح كارثة حلت بالناس في عدم قدرة البروليتاريا على الاتحاد تمثلت في بقاء الحزب الأشتراكي والشيوعي الألماني على الخلاف في الثلاثينات واتاحة الفرصة للحزب النازي في الوصول الى الحكم واغراق الارض بالدم والنار بعد بضع سنين . ورب قائل يقول ان المؤامرة على البشرية كانت أكبر من ان يمنعها اتحاد ذينك الحزبين فارده بأن الاتحاد لم يحدث

كي نعرف ما اذا كان قاصرا عن منع الكارثة . ومن العجب أن يحدث المستحيل في اتفاق ستالين وهتلر فيمهد لحلول الكارثة على سبيل اليقين باطلاق يد المانيا في الفتح والأكتساح . تلك اخطاء لاانبشها ولا احب ان اعود اليها الا اضطرارا .

لن انتهي من سرد آحاد تجاربي من تكوين الرأي من نقض ماهو قاصر عن الاقناع فاتخطى ذكرها الى القول بان مجال الكتابة فيها أو في حواشيها لم ينفتح لي الا حين صرت عضوا في المجمع العلمي الكردي سنة ١٩٧١ فليس مما يتسع له امكاني ان اراجع الرقابة واتفق مع المطابع واتابع البروفات والاحق المكتبات ، فبدأت في بيان جوانب مما انكشف لي في هذه الأمور من خلال قيامي بواجبي المجمعي وتيسر امكانات النشر . وظلت الافكار تختمر وتتكامل في خارطة تصوراتي حتى انتهيت الى قناعة اقرب الى الثابتة في نظري الى عالمنا الذي نضطرب فيه على هذه الأرض فوجدت ان الدنيا من حولنا وبين ظهرانينا تنقسم الى ثلاثة عوالم متميزة لكل منها تفسير خاص به :

١ - التفسير المادي . ويقتصر على شرح الطبيعة والمادة الميتة بدساتيرها الازلية الابدية التي لاتبديل لها في ازمان تتسع لها أقيسة البشر ، وكل محاولة لمط هذا التفسير حتى يطبق على غير المادة الميتة محاولة في اتجاه مناقض لطبائع الأشياء فما دمنا نستعمل تعبير (المادي واللامادي) فلكل منهما تفسير لايندمج بالآخر .

٢ - التفسير الحيوي (البايولوجي) ويخص عالم الاحياء وينقطع كلية عن التفسير المادي فيما عدا صلة المجاورة بين الاحياء الدنيا ذوات الخلية الواحدة وبين المادة التي منها خلقت ذلك ان ضعف

الارادة في هذه الاحياء الدنيا يضفي على نشاطها طابع الألية وتلك حكاية يسأل فيها علماء البايولوجيا والمواضيع المتصلة بها .

٣ - التفسير البشري وها هنا محنتي الكبرى وشغلي الأشق وعنائي الأطول .

ان تأريخ البشر واجتماعياته وتصرف افراده وجماعاته ورغبة وعيه ووهم سباته كلها نابع من الصفات التي تميزه عن عامة الوجود باحيائه وأمواته . ويأتي في مقدمة تلك المميزات عقله وما في حكم العقل من قدراته . واترك الكلام في النفس وملتقاها بالعقل ومدى التأثير المتبادل بينهما وأيهما يغلب الثاني ومتى وكيف . . فذلك عباب له سابحوه ودارسوه وان كان كثير مما يكتبون يفتقد اللحمة التي تحقق ترابط الاشياء .

وواضح ان البشر يشارك الاحياء الأخرى بايولوجيتها من حيث انه كائن حي . ويشارك المادة الميتة ماديتها بمقدار ان جسمه مخلوق من المادة . اما نسب المشاركة لعناصر هذه المعادلات من تكوين متعلقات البشر فهي خارجة عن مداري .

لم اجد في كل ما قرأته ورأيته واحسست به من امور البشر جليلها وقليلها أمرا واحداً صح تفسيره بالمادة ولا وجدت امراً منها خرج عن نطاق التفسير البشرى . وتبقى مسائل الارهاص والحاسة السادسة والحس قبل الوقوع وعلى البعد وجلب الارواح واستشفاف المغيبات والتنبؤات الصحيحة والرؤيا الصادقة وما في حكمها ذات مكانة خاصة اكثر تمييزاً من بقية انشطة البشر ، وكانت المادية تريح نفسها قديما من صداع هذه الأمور ومن متاهات علم النفس بانكارها وتجاهلها لانها على اقرب الأحتمالات وأبعدها لاتدخل في هيمنة وسيلة الانتاج والحاجة

الاقتصادية والمرحلة التأريخية والصراع الطبقي وما اليهـا . ومن الماديين ذوي المدارك الواسعة والأقيسة المتنوعة رجال صدقوا من هذه الاشياء ماثبت وجوده ولم يكابروا ، منهم بردناردشو ، فقد كتب في مقدمة مسرحية القديسة جان [جاك دارك] بتصديق ما يرويه التأريخ من تنبؤاتها وسماعها لهتاف الغيب يأتيها من صوت القديسات الشهيرات وعزا هذه الظاهرة الى العقل الباطن - كما اذكر - في تفصيل لامجال لبيانه هنا وهزأ انكار العقلانيين Rationalists والماركسيين لهذه الحقائق بسبب انغـلاق افهامهم عـلى التحليل المادي الصرف .

فتطور التأريخ ، ما هو في الحقيقة الاتطور البشر متمثلا في ابداعاته الفاضلة والمرذولة فهو اذ يتسع نطاق ادراكه وقـدرته أو يضيق وينحدر الى اسفل لايظهر أثرها في اعضاء جسمه بـزيادة الاصلابع ونقصان الحواجب وانما تتمثل في عمله وعبادته وانتاجه وصدقه وكذبه وعلومه وفنونه وسلمه وحربه وحريته وعبوديته وطرز طعامه ونوع لباسه ومواريثه ودفن موتاه وزفاف عروسه وفى كـل مايفعل ويترك . ومهما حاولنا ربط أطواره بأطوار وسيلة الانتاج فلن نبلغ في ذلك إلا إلى قلب الحقائق ، فوسائـل الانتاج احـد عناصر دنيا الانسان الأوسـع الارحب التي تشمل المـادة والمعنى وماهو منها منظور وماهو غائب مستشعر ، ولم تنزل عليه وسائل الانتاج من الغيب ولا تطورت من ذات نفسها ولا جاوزت فهم البشر وارادته فهى احدى علامات ذكائه ضارة كـانت ام نافعـة فكيف يصح تكبيل الذكاء بواحد من منطلقاته . وعجز الانسان في طور المحراث بالقياس الى قوته في طور آلة الحراثة ليس بسبب

كون المحراث لم يتطور بعد الى الة وانما يعود الى ان البشر ماتخطت به تجاربه طور المحراث اى انه لم يستطع بعد تطوير المحراث الى ماهو أحس والنتائج الباهرة المتولدة من آلة الحراثة ليست من بركاتها فلولا سائق يسوقها ومصلح يقيل عثرتها ونفط يغذيها وحظيرة تؤويها ولولا تجارة تعرضها للبيع ومصنع فيه عمال ومهندسون وخبراء وسحرة يصنعون المكينة ولولا . . ولولا عشرات (لولايات) الحيثيات البشرية لما كان محراث ولا مابعد المحراث . وتطوير المحراث ليس فقط متوقفا على الأنسان بل انه متوقف على انسان ماهر يعيش في مدينة بها وسائل كثيرة وكافية للتطوير وقد عاش الفلاح اكثر من خمسة الاف سنة يقود الثور والمحراث دون ان يفهم كيف يمكن تطويرهما الى آلة . فالأختراعات ليست فقط غير مادية وانما هى بشرية ماهرة متقدمة .

ما من شئ من استعمالات البشر وابداعاته واختراعاته يخرج عما دخل فيه المحراث من الأرتباط الكلى بقدرة الانسان وبمبعدة تامة من المادة الميتة . فهذا الثوب الذى ترتديه كان بالأصل مادة ميتة خارج ارادة البشر وهو صوف على ظهر الغنم وبعد جزّه مباشرة بدأ رحلة اطول من رحلات السندباد حتى استحال عليك ثوبا عبر مهارات البشر وتكنيكه وعلومه وفنونه وانظمته وقوانينه : صوفٌ جُزَّ فنُظف فغُزل فنُسج فنُقش فحُمل من مانشتر بالقاطرة ثم في الباخرة يسحب وراءه معاملات طويله معقدة في الكمارك والبنوك وفي التحويل الخارجى وصداعات العملة الصعبة . . ثم دخل بلدنا فطاف بالكمرك وقطع مدنا حتى وصل بغداد وحل في الاوروزدى وانتقل الى بائع المفرد فاشتراه أبو نضال وذهب به الى

ابى شيماء الخياط فاستعان ببلاوى كثيرة من خيط وإبرة ومكينة خياطة وقياسات وبروفات وكهارباء وماء حنفية وقلم ودفتر وشريط مساحة . . قماشك ياسيدى تنازعته القوانين وتعاورته الدول والشركات والعلماء والصلحاء والفسقاء والفنيون والعمال في مراحل لايحصيها العدد ومعاملات تقصم الظهر وكلها من ألفها الى نقطة يائها بشرية لادخل للطبيعة والمادة الميتة فيها الا بمقدار مايستعمله منها البشر إكمالا لعملية التصنيع والتصدير والاستيراد والتفصيل والارتداء .

التحليل المادى في يد ممارسيه يسطوعلى دنيا الأنسان بشراهة لاتشبع فتراه يحول كل ابداعات البشر الى رصيد المادة فان اكثر من تسعين بالمائة مما يسمى بالمحيط المادى ما هو الا مصنوع بشري يعكس قدرته ومهارته وارادته وشيطنته كما يعكس الهيكل المنحوت قدرة النحات وتعكس اللوحة المصورة قدرة الرسام . ان القلم الذي اكتب به من ناحية ارتباط وجوده بارادة الانسان هو بشرى اكثر من اصابعى التى تمسكه .

ليست الطيارة شيئاً يصح تسميته بالمادى لانها قمة حضارة الانسان ورمز سيطرته وعنوان تقدمه فلا فرق بين الطيارة والمخ الذى ولد علوم الطيران وهكذا شأن المركبة الفضائية والكمبيوتر . . وهكذا شأن كل مصنوعات الانسان . . نسبية انشتاين وفلق الذرة والصاروخ المغالب لجاذبية الارض كلها انسانية واشمخ مايسمى بالانسانى . .

كتلة الحجر على قارعة الطريق شئ مادى ولكنها حين تنحت صنما يعبده الناس تخرج من ماديتها وتكاد تخرج من دنيا البشر

لتدخل دنيا المعبود . . البيت الذى تسكنه تجمعت فيـه عشرات المهارات والصناعات والتخطيطات والمعاملات كلها بشرية ، اما بناية الجامع فهى شئ بشرى مسربل بالتقديس . . مادة الـورق الذى يستعمل في الجريدة والكتاب والنشرة السرية شئ طبيعى ولكن الكتـاب والجريـدة والنشـرة ثـورة ، إعـلام ، هـدايـة ، ضلال ، جمال ، قبح ، عداء ، صداقة ، سلم ، حرب . . اذا استـطعت فاحسب كم من الحيثيـات البشـريـة دخلت في طبق الحلوى التى تتناولها بعد الغداء . . عشرات الخيوط من المهارات والمعاملات والمصالح والمعادلات والمواصلات تشابكت وتضافرت في تحضير حلواك . . طقم الاسنان الذي يحل محل اسنانك الواقعة يختزن مهارة قرون من التحسين ووراءه الف تعامل وتكنيك . .

لاأطيل عليك في هذا الباب فاختصره واقول انه من الظلم الفادح الواقع بالانسان ان يسلب كل مايبدع وينتف ريشه ويسلخ جلده من اجل اغناء دور المادة الميتة في عملية الانتاج والتطوير ، فحـين يعزو المفكـر المادي ظـواهـر الأجتمـاع والتقـدم العلمى والتكنيكى والفنى الى (الظروف المادية) من حول المبدعين ينسى أو يتناسى ان تسعة وتسعين بالمـائة من هـذه الظروف مصنـوعات ومبتدعات بشرية منها ماهو قمة القمم في الأعجاز لا يفهمها غير قلة من النبغاء . واذا كان البشر البدائي قبل عشرة الاف سنـة لايجد إلا واحدا في المائة مما يحيط به صنعاً بشرياً فيتوجه بالضرورة الى الـطبيعة يستلهمهـا بفهمه السـاذج سر الـوجـود ويلجـأ الى ظواهرها الباهرة من سماء وانوار وامواج وامطار واقواس القزح في عباداته وطواطمه ويحتال على ثعالبها وارانبها بالمقلاع والهراوة فان ابن هذا العصر محاط في الأغلب الأعظم مما حوله بمصنوعات البشر

وابداعاته وتلفيقاته وتضليلاتـه وهدايـاته ومـرئياتـه ومسموعـاته ومقرواته : يولد عـلى يد القـابلة ويربّى في الحضـانة فـالروضـة فالمدرسة ويقتات على المصنوع ويلبس المصنوع وينتقل بالمصنوع ويستنير بالمصنوع ويموت في المصنـوع وقل ان يمتـد اهتمامـه الى اطياف السماء وطرائد البرارى وعشب السهول الا من كان منه فنانا هائماً أو مكتشفا حائماً أو عالما باحثاً فهم قلّة تسلحت في احساسها وفهمها وعملها بما هو بشرى واستزادت من ذلك فوق حظ عامة الناس فمهرت وبهرت .

مصطلح (الظروف المادية) المقصود به كـل ما هـو بشرى شائع بين عامة المتكلمين في مواضيعها سواء منهم الجدلى وغـير الجدلى ، المادى والمثالى .

لا رجاء فى الفهم الصحيح للتـأريخ والاجتمـاع وتقويم الاحداث الا باستـرداد البشر مـا سلبته المـادة منه بـالتبريـرات الفلسفيـة فيفرق بـين مصطلح (الـظروف الماديـة) و (الـظروف البشرية) في تعليل احوال البشر .

اما حكاية ما يسمى (بناء فوقيـا) فأمـرها عجيب وشـأنها اغرب وقد مرت الاشارة اليه :

يقول الماديون ان الأبنية الفوقية انعكاسات ما يسمى بالبناء التحتي المادي من وسائـل الانتاج والنـظام الأقتصادي ومـرحلة التطور . فالاساس للأبنية الفوقية هو الأبنية التحتية التي تكون واحدة في مرحلة التطور الواحدة في كل البلاد فالاقطاع هو هو في كـردستان وفـرنگستان عبـارة عن تملك الارض (وسيلة انتـاج)

واستغلال الفلاح في استثمارها ، اما الابنية الفوقية فانها يمكن ان تختلف وتتفاوت من كردستان الى فرنكستان إلا انها تكون اكثر تماثلا في البلدان المختلفة ذات النظام الاقتصادي الواحد من تماثل الابنية الفوقية للبلد الواحد في نظامين اقتصاديين مختلفين يتعاقبان . . وهذا مارفضته بديهتي في أول التفاتة :

ان الأبنية الفوقية لاتنعكس من المحراث والمقلاع والشبكة وحبة القمح وجلد الثعلب ولا من النظام الاقتصادي بحد ذاته ولو كانت منعكسة من هذه الأشياء وجب ان تكون متشابهة في كل البلاد التي تستعمل هذه الأشياء في معاشها أو تتبع نظاما إقتصاديا واحدا ، وأقصر سبيل الى هذا البرهان هو (قانون السببية) فانه اذا كان الأصل في الاشياء واحدا كانت الاشياء متماثلة بل تامة التماثل بدوام ذلك الأصل فاذا تغير الأصل تغيرت الأشياء بالتبعية . فاختلاف الأبنية الفوقية من بلد الى بلد دليل قاطع على ان ابنيتها التحتية مختلفة والقول بغير هذا يفتح الباب للالتواء بتفسير اي شئ وكل شئ .

فما هو حقيقة (البناء التحتي) الذي ينعكس منه القانون والفن والادب والعقيدة والعادات ومقاييس السلوك وما الى هذه المعاني المالئة ساحة البناء الفوقي ؟

انه البشر . . انه المجتمع البشري ليس الا !!

ولما كان البشر يختلف بتجربته وتصوره وخلفيته الثقافية وتناوله للأمور وتحايله على المصاعب وكيفية التعامل من بلد الى بلد ومن قرية الى قرية بل من محلة الى محلة في الوطن الواحد والمدينة الواحدة بل ان االأمزجة تختلف من انسان الى انسان كان في حكم البديهة ان تختلف الابنية الفوقية من بلد الى بلد ومن محلة الى

محلة . فالبشر الذي صنع كل مايسميه الفيلسوف المادي بالبناء التحتي خلق أيضا ابنية فوقية على مزاجه المفرغ فى دخيلته ودخيلة مجتمعه عبر مئات السنين . قد يستنبط رجل اواسط اوروبا من الطاحونة اسلوبا في التعامل يختلف عن اسلوب التعامل الذي يستنبطه البلوچي من الطاحونة نفسها وكلاهما يتحرى عن وجه المصلحة وفق ماهو ميسر ومألوف . ويتعامل اقطاعي البصرة سنة ٨٠٠م في مراسيم الزفاف مع العروس ومع المعازيم على نحو يختلف كلية عن تعامل اقطاعي روما ٨٠٠م . . العمال الذين اتوا من اقاصي الشرق الى بغداد في مشاريع لحساب العراق كانوا مختلفين عن عمالنا في اسلوب العمل والمعيشة والسلوك واقتناص الكلاب السائبة لعشائهم . تعايش المسلم والمسيحي لأكثر من ١٣٠٠ سنة في الحارة الواحدة وبقيا متباينين في موقفهما من الخمر وبعض المأكولات وامتنعا عن التناسب بالزواج وندر اشتراكهما في الولائم . المسلم في الهند يشبه في ابنيته الفوقية مسلم مراكش ويبتعد بالكلية عن الهندوسي وهما شعب واحد سكنة الشارع الواحد بل قد اختلفت كثير من ابنيتهم التحتية بسبب اختلاف الدين وهو بناء فوقي .

الرجوع بالبناء الفوقي الى الثور والمحراث والناعور وبيض النعام جهد باطل من اساسه وتربص بالبشر وسطو على صفاته في خاتمة المطاف . والقائلون بهذا الرأي المقلوب يستمرئون صياغة الأبنية الفوقية عن طريق القوانين والتثقيف والترغيب والتشبيط على وفق ما تقتضيه نظريتهم توصلا الى تكريس او حدية وسائل الأنتاج ونظام الأقتصاد في التحكم بالضمائر والمشارب والنوازع وقد قطعوا ابتداء الأتصال المباشر بين البشر وتأريخه واجتماعه بتوسيط

الوسائل والمراحل والأنظمة بينه وبينها كأن البشر لم يكن في الأصل صانع تلك الهوامش على حواف وجوده الأوسع .

انا لا اقول بان البشر يتجاهل معمله ومحراثه والبنك في محلته ، ولا اقول بان هذه الاشياء لاتقتضي منه تعاملا يوافقها ، فلو قلت بهذا ناقضت نفسي وخالفت بديهتي لانني حين اؤمن بفاعلية البشر في صنع البناء التحتي واوحديته في رسم معالمه اكون قد استلزمت ان يأتي من القوانين وقواعد التعامل والسلوك بما يتناسب كلية مع طبائع ذلك البناء ، فهو في العادة اعقل من ان ينقض بناءه التحتي ببناء فوقي لايناسبه . والملحوظ في المعتاد ان يكون هذا التناسب بمقدار ماهو مستقر في النفوس والاذهان من الاقتناع بجدوى الاشياء من جهة وقدسية العقائد والاعراف من جهة أخرى فقد تدخل العقيدة في احيان كثيرة طرفا مشجعا أو متبطا تجاه مصلحة من المصالح فيختلف موقف الناس منها تبعا للعقيدة وتتصدى مقاييس الكرامة في هذا البلد بالعداء لمنفعة مرغوبة ويتقبلها بلد آخر بالترحيب . فبرقع النساء لايفرض اعتياد بل ان احتياج الاحتجاب يستلزم البرقع .

وليس غريبا ان يكون اهم جانب للبناء الفوقي عند شعب من الشعوب مستوردا ومقتبسا ومستعارا كله من شعب آخر فالاكراد دخلوا في الاسلام خلال زمن قياسي في القصر واحلوه محل الزرادشتية في غالبية ابنيتهم الفوقية وعدلوا من ابنيتهم التحتية ما لا يوافق قواعد الاسلام واعرضوا عن بيت النار الملاصق لبيوتهم وشدوا الرحال في المهالك والمصاعب الى الكعبة والحجر الاسود . لقد غيروا وجه حياتهم على ضوء عقيدة لم يكن لها وجود في صفحة معقولاتهم قبل عشرين عاما من ذيوعها . وفي زماننا

الراهن هجر الشاعر الكردي المحدث الشعر العروضي وانتحل شعرا حرا في مبناه ومعناه خلال زمان لاينضج فيه البلوط على النار . ويعجبه ان يعلل التغيير بتطور الواقع والمرحلة ولكن الحقيقة هي أن التغيير جاء من تغير الافكار بسبب سهولة انتقال الثقافة جاهزة كاملة من بلد الى بلد فلم يكن الواقع الأقتصادي الكردي قد تغير منه شئ يوم بدأ ذيوع الشعر الحر في ربوعه . اما سر السرعة الخارقة في طغيان الشعر الحر على النظم الكردي فمرده الى سببين اساسيين يتصلان بالبناء الفوقي لا التحتي :

السبب الأول هو وقوف الناشئة موقف المناوئ من الماضي واعتبارها الاسلوب العروضي آية من آيات ذلك التخلف ؛ وهو واحد من اشياء كثيرة كرهتها نفوس الشباب من تراث الماضي في الفكر والاجتماع فاعرض عنها الى ما يخالفها في قوة وحماس . ولم يكن شئ من الفكر الجديد نابعا من واقع الكرد ولا من واقع الشرق عموما فقد كان واقعنا يمتاز ببدائية موروثة من ايام لايعرف أولها . لقد فاضت علينا الافكار من موطن السيارة والطيارة والراديو والتلفزيون واقبلت علينا كلها سواسية .

السبب الثاني هو فقر البيدر الكردي من غلة الشعر العروضي وافتقاده قدرة الدفاع عن النفس فانقلع بزخم الشعر الحر وتوارى الا انفاساً منه تتردد بين الفينة والفينة على استحياء ، على حين عجز الاسلوب الحر ان يقلع جذور العروض في الشعر العربي والفارسي لضخامة تراثهما ولقدرتهما على الدفاع عن النفس والازدهاء بالذات . وتصدى العقاد للدفاع عن العروض بكلام قوي اذكر من معناه ان هذه الاوزان لم تكن سجونا فكرية ينبغي هدمها وانما كانت منطلقات للتعبير والتبليغ ولم تزل .

ولقد سألني شخص اوروبي عن السبب في كون الاحزاب السياسية في المنطقة الكردية بالعراق ماركسية كلها فشرحت له السبب بما يلي وأظنه صحيحا :

الكردي يعيش منذ اكثر من خمسة وعشرين قرنا حالة من التشرذم لاتماسك فيه ووضعا اقتصادياً في مستوى الافلاس ودخل عصر الاحزاب في الفترة بين الحربين اواخر الثلاثينات - كما اظن - بمستوى ثقافي عصري يبعث على الأسى . فاذا بدا لنا ان نمتحن (الاقطاع !!) الكردي من منظور العصر في صدد تشكيل حزب وجدنا الاقطاعي الكردي العائش في القمامة لم يزل يبصم رسائله وصكوكه وخير لي ولك أن نحذفه من قائمة المرشحين للسفر في متاهات الحزبية ونتركه يمارس ظلمه الغبي - في تلك الأيام - سادراً في الذهول عن الذات والطبقات وتحديات الزمان خارج نطاق العصر في مفاهيمه وتطلعاته ومقتضياته ونتخطاه ونتخطى الطبقة (البرجوازية !!) بعده في مسألة تشكيل كيان افتقدناه منذ ٢٥ قرنا . . ونمتحن البرجوازية في مجال تشكيل حزب يدافع عن مصالحها !! لقد قصرت البرجوازية ان يكون لها وجود بمقاييس هذا العصر وكل العصور كي تفكر في الدفاع عن النفس والتبشير برسالتها الحضارية ورد العادية من خصومها فاخفقت في بدائيتها الفاجعة ان تكون لها صحيفة واحدة عبر التأريخ تتكلم بلسانها . ولو جشمت نفسها فوق طاقتها فأصدرت الصحيفة لما وجدت كاتباً يشرح مواضيع الاقتصاد ومشاغل راس المال ومشاكل البروليتاريا التي لم يكن لها وجود . فكيف يكون للبرجوازية حزب يستلزم اول ما يستلزم وجود هذه الصحيفة ! ونعفي البرجوازية الكردية

المختنقة في رحم التأريخ الكردي من مشاكل الصحيفة والطبع وتنظيم الكوادر وكتابة المقالات وما الى هذه المصائب التي ينهزم اكبر تاجر كردي من ظل اشباحها ، ونطالبها بأن يكون لها مصرف (بنك) واحد وهو أظهر معبر عن وجود الثروة والتجارة والبرجوازية - عموما - بل اننا نترك البنك بتعقيداته وفيشاته وتشويشاته وتأكد افلاسه في الثلاثينات في المنطقة الكردية بعد انشائه ، ونسألها ان تكون قد أنجبت صرافاً واحدا من باب عرض النماذج !! فلا نجد في تأريخ البرجوازية !! الكردية !! صرافاً . . والمفروض ان تكون الطبقات الموسرة المقتدرة مظنه تشكيل الحزب واصدار الصحيفة ومشاغلة الناس بالنهج السياسي المقبول في نظرها فنجد ان :

١ - الاقطاع الكردي مشلول حضاريا مأفون طبقيا غبي في ظلمه بأدنى دركات البدائية والتفاهة .

٢ - البرجوازية الكردية عاجزة عن توفير صراف واحد على مدى الزمان فلا منطق في مساءلتها اين حزبها وجريدتها وصوتها المدوي في المحافل ورنين المال في بنوكها !!

لم يبق في الساحة اذا غير مادة (الافلاس) نبني منه كيانا حزبيا !! وهو زاد موفور منذ ايام الميديين وليس من فكر سياسي يتعامل حضاريا باسلوب العصر مع الأفلاس غير الفكر الداعي الى ثورة الفقراء . . وكان من طبائع الاشياء الايجد المثقف الكردي في الخواء المادي والحضاري من حوله وتخلف الطبقات الموسرة عن الحد الأدنى من المواصفات الضرورية للاستجابة الى منازعه واشباع طموحه وتجربة قابلياته غير الفكرة الثورية في المادية الجدلية فانجذب اليها ودرس مناهجها ومهر في تاكتيكاتها فضم قابلياته الى

المادة الخام الموجودة بكثرة بين صفوف الفقراء يتوجه اليهم بنشاطه ويقصر عليهم كفاحه فشكل احزابه الماركسية في يسر وسهولة وما كان بمستطاعه ان يفعل غير ذلك في حكم الاحوال السائدة الا ان يقبع في بيته بعيدا من السياسة . وشذ عن هذه القاعدة شئ واحد هو انتصاب الفكرة القومية قبل الطبقية تأريخيا في مخاطبة الجماهير وبمحاذاتها فيما بعد تحاول استقطاب الجماهير فأنه اذا كان الاقطاعي والبرجوازي يجتر قصوره وعجزه على هوامش العصر ويفتقد كل مقومات الانخراط في ترف السياسة والكفاح من أجل الطبقة فان خامة تشكيل الحزب القومي موجودة في الضمائر ، وهي اذا تساوت الموازين بينها وبين خامة الحزب الطبقي كانت خليقة ان تحوز الأسبقية ولكنها كانت تفتقد العون والتأييد من أية جهة وتعوزها فلسفة قومية متكاملة تناسبها وتنميها في مضامير المنافسة فلم تجد غير الجدلية تستعين بها في الصراع الفكري فجاء انحصار ايديولوجيا الاحزاب الكردية في الفلسفة الماركسية من قبيل طبائع الاشياء وبرهانا على وضوح العبث في مصاولة الجيل الثوري الكردي (لطبقات !) بلغت البلاهة ببعضها والتفاهة ببعضها الآخر حدا اخرجها كالنفاية من ساحة السياسة ومن ساحة العصر برمته وهو وضع لايلده الا افلاس خمسة وعشرين قرناً من الزمان .

ولي كلام في المراحل التأريخية أقوله في بعضها باختصار شديد وان كان اي موضوع مر في المقال حتى الآن وما سيأتي بيانه حريا ببحث مستقل :

اتجاوز اعتراضي على نسبة المرحلة التأريخية الى وسيلة الانتاج والنظام الاقتصادي دون البشر واحتفظ برأيي في مدى قيمة

الصراع الطبقي محركا للتأريخ ومؤديا الى التقدم منذ القدم حتى عصر النهضة واتخطى صحة مساواة المجتمعات المتباينة في انطباق الحكم الواحد عليها من منظور المراحل . . وتفاصيل اخرى كثيرة اذا ذكرتها ضحلا ظلمت نفسي واذا منحتها الحد الادنى المقبول من العناية تعسر الانتهاء منها بل تعذر فأقول :

ما يسمى بمرحلة الشيوعية البدائية فيه توسع وتساهل في التعبير لايحتمله مفهوم المرحلة المضافة الى التأريخ فالذي اراه هو ان البدائية في الطور السابق على (الرعي) لا تدخل في اي تفسير يعتمد الاقتصاد اساسا فاقتسام الصيد وغلة المروج وفاكهة الغابات على الشيوع شئ تفعله حتى اصناف من الحيوانات فليس في هذه المأكولات حيازة على وجه التملك والأستثمار . والطفرة الواسعة في صيرورة الانسان كائناً اقتصاديا تحققت في الرعي ففيها حيازة وتملك ورعاية وحماية وايواء وتربية صغار وتصرف بالحليب وتدجين للكلب وتنويع في الوسائل وتطويرها الى أحسن . ولاضير بعد ذلك في ان تكون استفادة حائزى السائمة على الشيوع الى زمان يطول أو يقصر .

والنقلة الكبرى بعد الرعي تأتي في الزراعة ففيها تملك للأرض وثبات عليها وبناء للبيوت وما لاحصر له في التعامل الجديد مع الطبيعة ومع المقتنيات .

وليس دقيقا ولا منصفا وصف هذه المرحلة بالاقطاع على وجه الاطلاق فليس حتما ان تؤدي ملكية الارض الى اقطاع ولا ان يكون الاقطاعي في كل زمان ومكان جزء من الطبقة الحاكمة . والتشويه الذي يصيب هذه المرحلة الاساسية في الحضارة بتسمية بغيضة يذهب بجانب كبير من أصالتها ورسوخها في القواعد التي

نهضت عليها الحضارة فيما بعد فلولا تملك الارض ماقامت زراعةولولا الزراعة ما نشأت قرية ولولا القرية ما نهضت مدينة ولولا المدينة ما انبعثت حضارة . ولا يقلل من قيمة ملكية الارض في مشوار تقدم الانسان ان الزراعة نفسها وما تبعها من الاقطاع لم يكن لها دور يذكر فيما حصل بالمدينة من حضارة فالاقطاع لم يلد المرحلة التالية بعده لانه عقيم حضاريا فقد ظل احقابا من الزمان يتعكز في انتاجه الزراعي على المحراث والثور والمنجل بلا تغيير وافرز افكارا بدائية مختلطة بضباب الاساطير واشترى الترف والتحف وأطايب الحياة جاهزة من خارج مهارته وفنه . فالحضارة عبارة عن المدينة بكل طبقاتها وشرائحها وحملة علومها وفنونها واصناف حرفييها وتكفي نفسها بنفسها في عملية التطور بمبعدة من الأقطاع الفج . والحضارة كانت ستنشأ حتى بفرض انعدام الاقطاع وما تطورت وسائل انتاجه الا بفضل المدينة وعلومها وفنونها وصناعاتها . ولقد جرى تشويه حضارة المدينة كما جرى في ملكية الارض بالتسمية الشوهاء حين سموها برجوازية . والرق ليس مرحلة تأريخية وانما هو ظاهرة اجتماعية كالجيش والطلبة وطبقة الموظفين والموكلين بالمعابد . ومن عجب الا يعتبر نشوء الحكومة وظهور الكتابة مراحل في التأريخ رغم كونها من اهم منجزات البشر التي لها طابع الشمول ويعتبر الرق مرحلة مع انه ليس متصلاً بعملية الانتاج من حيث هو رق ، ولا هو حرفة يتعلمها الانسان فقد توزعوا على كل الحرف حتى صار منهم ملوك ووزراء وقواد وقد حكم المماليك بلادا معلومة لفترات طويلة . ولم يظهر الرق في كل البلاد وليس ظهوره محتوما لافكاك منه واكبر مصادره الحروب وأسر الجيوش المهزومة واسترقاق الشعوب

المفتوحة . صحيح ان العبيد طبقة في قعر المجتمع ولكنهم ليسوا مرحلة وكانوا اشتاتا من جميع الطبقات بدءً بالملك وانتهاء الى العبد الذي كان يسترق مجددا من قبل المنتصر . ولربما افتدى العبد نفسه ثم دارت الايام فاشترى سيده القديم . ولا يخلو من دلالة ان الرق يمتد وجوده عبر مراحل متعددة ولا يمنع مانع عقلي ان يكون ابديا في صورة من الصور فهو حالة قانونية او افراز اجتماعي بغيض يجوز دوامه وزواله .

قلت في اوليات كلامى انى اعود الى دور الفرد فى التأريخ وله تفصيل لايمكن تحاشى كله فألخص بعضه في نقاط تالية معدودة اشرح بعدها جوانب منها جديرة بالتوضيح قدر مايتحمله المقال . والنقاط هى :

(أ) تأثير الفرد في التأريخ وفي المجتمع يتناسب طرديا مع مايلى :

١ ـ قابلياته ومزاياه .

٢ ـ المناخ العام من حيث استعداده لاحتضان النبوغ أو الاستجابة لصوت الحق .

٣ ـ المركز الذي يشغله الفرد في بنية المجتمع .

وذلك كله متصل بالجانب الفضيل في التأريخ والاجتماع .

(ب) من الافراد افذاذ يتفردون بصفات لاتجتمع لغيرهم تجعل تأثيرهم في الناس لايضاهى فاذا ماتوا مبكرين انطفات جذوة الحركة التي نشأت من حولهم لانعدام البديل عنهم . ولربما مات أطفال افذاذ كانوا اذا عاشوا احدثوا في الدنيا أثرا .

(ج) لايجوز الاقتصار على ذكر دور الصلحاء والمخلصين فمن الذين كانوا مؤثرين في الاحداث افراد بلغوا الدرك الأسفل في

السوء والشر . والملحوظ في مجمل أمرهم قديما أنهم اكثر عددا من الصلحاء واتباعهم من الأشرار أوفر من اتباع المخلصين . والسبب في ذلك واضح فالساعى في الشر يبغى الاستئثار بالخيرات على عكس الداعى الى الخير فهو متبرع بما عنده . والمستجيب للشر يشبع دواعى الشهوة والنهم في نفسه ، والمستجيب للصلاح هو في احسن الاحتمالات بالغ حقه الشرعي فقط . اما شيوع الروح الأجتماعية النبيلة التي تخرس نأمة الشر او تخفتها فهو محصول طفرات واسعة في الضمير الأجتماعى نحو الأمثل دونها المشقة والمهلكة ولا يتأتى الا بعد تطور طويل النفس دؤوب السعى في كل ميادين الاجتماع .

(د) كلما كان (الأمر شورى بينهم) كثر عدد صانعى القرار واتسع المجال امام القابليات وضاقت الفسحة بوجه الألمعية الفردية للبروز والطغيان ولكن يبقى لها فى الأحتمال الغالب اثبات الذات والتفوق بلا احدية

تلك امور تكاد تكون جارية مع السليقة واغلبها متناثر في الكتابات تلتقطه العين هنا وهناك ويبقى للموضوع جانبه الذى لم يُطرق أو لم أجده انا يُطرق وهو من المواضيع التي عثرت في نقضها على واحدة من قناعاتى .

الغالب فى كتابات الماديين حول (دور الفرد) ان يكون اهتمامهم مقصورا على البطل التأريخي المعترف له بالقيادة السليمة الحكيمة للجماهير في اللحظات التأريخية الحاسمة وهو اهتمام مشروع ومقبول ولكن لى عليه ملاحظتين : اولاهما ان نظرهم مركز على الجانب الفاضل من الاحداث التأريخية حيث تلتقى نظافة القائد بنظافة الجماهير في رأيهم ويتحاشون تعميم (دور

البطل) على قدة الخير وقادة الشر مع ان كل فئة منهما تصنع التأريخ على شاكلتها ولكلتيهما جماهيرها وجيوشها ودعاتها ولا يندر ان يكون أحد ابطال الشر بنظر المادية هو الخير المحض بنظر فلسفة اخرى ولربما وجدنا نماذج تقف على شعرة فاصلة بين الخير والشر فحسبهُ هذا المفكر المادى من الأخيار وحسبه زميله من الاشرار فالدنيا متصل ادناها باقصاها وقد يختلط نورها بظلامها وتتداخل خيراتها مع شراتها . و واضح ان دور (الجانب السلبي) للنشاط الانسانى مغفل نهائيا عند المفكر المادي في احداث التأريخ ووزن ادوار القادة فلا معيار عندهم الا (الحقائق المادية) تسوق الحدث والبشر في تدفقها .

والملاحظة الثانية هي ان حصر دور الفرد في التأريخ بشخص البطل المرتفع الى مستوى الموقف في اللحظات التأريخية الحاسمة يذهب بتسعة وتسعين في المائة من خطورة الفرد ويطوى مساحة البحث في دوره وهى عرض التأريخ كله الى نقاط متقطعة هي هذه اللحظات النادرات التى اذا جمعناها الى بعضها في خط واحد ولجت في سم الخياط ونفذت منه في ثوانى معدودات واليك البيان :

واضح ان هم المفكر المادى في مضايقة الفرد بان لايكون له في التأريخ دور الا اذا كان بطلا في اللحظة الحرجة راجع الى سبق التزامه باهداء التأريخ واحداثه واطواره الى وسائل الانتاج والصراع الطبقى والمرحلة وما الى هذه المؤثرات التى اذا اجتمعت وتوافقت واحدثت زخمها أنضجت ثورية الجماهير وهيأتها لخلق بطل يتولى زعامتها ويجسد ارادتها ويقودها الى حيث يجب ان تقاد وبهذا ينتهى الصداع في مشكلة الملوك وقواد الجيوش واصحاب

المواهب وذوى القوة والسلطان حتى لايكون لاى منهم دور في التاريخ وتأثير في الاحداث أو المصائر ، وأنا موافق على رأيهم بشرط ان يمنع رأيهم هذا غارة هولاكو على بغداد وهجوم الصليبيين على الشرق والحرب الاولى والثانية . بل أترك هذه المستحيلات وأرضى ان يمنع رأيهم تكرر مأساة بوكاسا والثورة الثقافية وذبح الابرياء في اصقاع الارض . ما جدواى وماسلواى في حصر الدور التأريخى بالبطل اذا كان العتاة القساة يمارسون ادوارهم فيسحقون ويمحقون ويحرقون ويمرقون ويسرقون ويفسقون على هواهم وعلى مراى من الجماهير وفي غياب كلى لهذا الرأى !! على ان هذه الجمل الأخيرة أملتها العاطفة فارجع الى صلب الموضوع واقول ان حصر دور الفرد بالبطل التأريخى يفرغ التأريخ من ان يكون للفرد دور فيه لاننا اذا جمعنا اللحظات الحاسمة التي برز بها البطل خلال خمسة الاف سنة الى يومنا الراهن لما احصينا غير حفنة من الافراد تهيأهم مرة كل بضعة قرون ان يقفوا وقفة الأبطال . ولقد نجد شعبا من الشعوب تعذر عليه ان ينضج اللحظة التأريخية الحاسمة فيكون قد فقد سانحة المباهاة بان يكون لاى واحد من افراده اى دور في التأريخ . فأذا كان كل افراده بلا دور كانت جماهيره كلها أيضا بلادور فيا لقحط الرجال !!

رب قائل يقول ان افلاس الافراد لايعني افلاس الجماهير لانها تكون خلال احقاب الزمان قد كدت وبنت وانتجت ونسجت وظلت على مدى الايام عاملة على ركم هذه المقادير حتى تصبح من الضخامة بحيث تحقق القاعدة المشهورة بعنوان (تحول الكم الى الكيف) فتقع الواقعة ويظهر البطل . فأقول هاهنا مربط الفرس في

مايعنيه دور الفرد ولكن ممايؤسف عليه ان اقوال الفلاسفة الماديين تفرق بين التأريخ ومجريات الحياة الاجتماعية التي يعيشها الانسان فردا ومجموعا بألف صورة وفي الف ميدان من يوم الى يوم رغم ان التأريخ ليس الا حاضرا يتتابع يوماً بعد يوم تسطره الاقلام أو ترويه الرواة . ولا يقلل من اهمية تفاصيل هذا الحاضر اليومى المتتابع ان الكاتب والمؤرخ قد لايدق نطره أوو يرهف حسه حتى يراها بوضوح . فالتأريخ ليس رواية احوال القرامطة أو زنوج البصرة أو معارك الاباطرة ومباذلهم فقط ولا هو اصطفاف الجماهير وراء مزدك على ايام الأكاسرة فقط وانما هو الى جانب ذلك ماقام به مجموع الافراد كل في مجال عمله وعقيدته وارتباطاته الاجتماعية ومباذله ومشاغله الأخرى وبمعنى آخر : ان التأريخ هو مجموع افراد البشر وبهذا المعنى فقط يلتقى التأريخ بالاجتماع ويتحد معه . صحيح انه يستحيل سرد افعال الأفراد ونشاطات المجتمع في كل زمان ومكان عند التصدى لذكر حدث اجتماعى أو تأريخى ولكن يجب حضور معناه في الذهن واعتباره في الحساب فنحن لانستطيع تعداد نجوم المجرة ولكننا لانجهل مقام هذه النجوم ولا نقول في كل مرة نذكر فيها الماء انه السائل المتكون من اتحاد كذا وكذا في ظروف كيت وكيت وكفانا وكفاه ان تكون حقيقته معتبرة في معادلاتنا .

ويجب بعد هذا الا يضيع حساب الفرد في تضاعيف حساب الجماعة فليس يسعد عامل التنور في مخبز ببغداد ان يتخطاه الحساب الى تعداد الافران ببغداد وذكر رقم مجموع عمالها . صحيح ان عامل الفرن لايربح من ذكر اسمه في الاحصاآت المجردة ولكن صحيح ايضا انه يخسر اذا لم يُحترم بشخصه في

مراجعاته الرسمية فلا يفيده قطعا استقبال الوزراء لمجموع الفرانين حتى باب الوزارة في مناسبة اول أيار واجدى عليه الف مرة ان يلتفت كاتب الواردة في الوزارة الى طلبه بانتباه في سائر ايام السنة . وتكون خسارته افدح ممايتصوره الفيلسوف اذا داعبته توهجات الصياغة الفلسفية في تقسيم أمجاد (البطل التأريخى) على

مجموع الناس تعويضا له من طموس ذكره وذهاب اعتباره على ابواب الدوائر .

لامحيص من التسليم بان الفرد اساس الجماعة وكل الافرادهم الجماعة فليس لها وجود تمارسه خارج وجود افرادها . ولا يفيد قول الفيلسوف بأن الاحترام المبذول لمجموع الناس يتضمن احترام كل فرد فيه فليس مستبعدا ان يؤول ذلك في الختام الى توزيع (عدم الاعتناء) بالتساوى على المجموع . وللفرد وجود متميز خاص به يمارسه بلذة أو بألم وتكون آلامه وتفاريحه في المعتاد مقصورة عليه فليس في الامكان ان يقام في كل يوم مهرجان عام للفرح توزع اطايبه على الافراد . وليس ينقض هذا الكلام أن عدوى الفرح والكابة والنشاط والخمول تسرى من الجماعة الى الفرد . فالفرد نفسه مصدر جزء من هذه العدوى الى غيره فالشعور العام في شتى صوره ملك جميع الافراد يتوزع عليهم حسب امزجتهم فلا دائن ولا مدين .

لاجرم يكون للبحث في دور الفرد اعتبار يوازى مجموع التأريخ ، ولربما صح اختصارا للكلام ان اتناوله تحت عنوانين يشملان اهم حيثياته :

العنوان الاول هو الفرد فى القمة : ولا يهولن هذا العنوان

عاشقَ الجماهيرية والشعبية فمصيبته ابسط مما يتصور فالمجتمع البشرى منذ نشأته قبل الاف السنين اقتضت طبائعه ان يكون في قمته فرد ينصاع له الاخرون وينتهى عنده اقرار الأمور . وفي القديم القديم كان مقدار القوة والمقدرة القيادية يقرر من يكون القائد فاذا ضعف حل محله من هو أليق . وبتوسع نطاق المجتمع وتنامى مصالحه وتنوع انشطته وظهور التمايز بين اصنافه وشرائحه ، اقتضت الضرورة وماتزال تقتضى ان تكون بنية المجتمع عبارة عن اعداد غير محصورة من الأهرام الأجتماعية لكل منها قاعدة وقمة ويكون القرار النهائى في اى امر يتصل بالهرم راجعا الى الفرد الذى يحتل منه القمة . فانظر الى المجتمع والى الدولة من حولك في يومك الراهن وحاول ان تُحصى الأهرام الأجتماعية من اهلية ورسمية بقواعدها وقممها . في المدرسة ، في الجامع ، في البنك ، في الكنيسة ، في المستشفى ، في السينما ، في البيت ، في اسالة الماء والكهرباء والنقابات والاحزاب والكراجات والمسالخ ودور الحضانة والمجاذيب والعقلاء اهرام اجتماعية لها قاعدة وقمة ومن فوق هذه القمة هرم له قاعدة وقمة حتى ينتهى المطاف في قمة القمم عند رئيس الدولة . اذا دخلت دائرة حكومية وجدت عددا هائلاً ممن يستطيعون عرقلة مصلحتك بدءً برئيس الحراس في باب الاستعلامات وصعودا الى ركبة الهرم وخاصرته وصدره فأعلى ثم اعلى . عرج على دائرة التلفون والكهرباء وجرب حظك فيهما فانى ، ولاغرابة ، اعانى فيهما صعوبة منذ عشر سنين واكثر واتهيب طرق بابهما وتلمس سبيلى بين القواعد والقمم . . اننا نجابهون بمشاكل يومية مع الشكل الهرمى للمجتمع باكثر مما تصادفنا المصاعب في الفروق الطبقية فقد لايقع تصادم طبقى

واحد خلال مائة عام واذا وقع في الكوفة هدأ في راوندوز . وقديما كان هذا التصادم اندر من النادر وما تحس به من تلاحق المصادمات وتفاريقها وانت تقرأ عشرا منها في كتاب للتأريخ في صفحتين كان يقع موزعا على عشرات السنين ومئاتها وفي مواطن متباعدة على اديم الأرض .

وقمة القمم في المجتمع لها شأن خاص في التأريخ قديماً وحديثاً فهو بطبيعة موقعه في مركز اقرار الامور الخطيرة يستطيع ان يكون مؤثرا بذاته في مجمل احوال المجتمع . وكان رئيس الدولة في العصور الماضية هو الحاكم بامره لضعف الرقابة الاجتماعية على سلوكه . ولا يصح تصوير المجتمع القديم هرما ناقصا بدون قمة واعتبار الطبقة العليا هى سطح الهرم الناقص فالمشهود هو ان قمة الهرم كانت على الدوام في صراع مع هذا السطح الواقع تحتها مباشرة ولم يندر ان كانت نهايتها على يد واحد أو اكثر من مكونى ذلك السطح وما اكثر ما فتكت القمة بهم وعزلتهم وصادرت اموالهم . وكان اندر من النادر ان تكون الجماهير في قاعدة الهرم انتظمت صفوفها وتجمعت قواها فطالت يدها حتى نالت القمة . وفي الحالات القليلة من الهبّات الجماهيرية كان فرد من الناس يحتل منها مقام القمة فاذا هلك خمدت الحركة واذا انتصر اصبح هو قمة جديدة تفعل بالناس الأفاعيل .

اذا فقد قضت الضرورة ، بصرف النظر عن مطاليب وسائل الانتاج من ناعور و فخ ومغزل وارض ومقلاع ان يكون للمجتمع قمة في رأس الهرم . ومن طبائع الأمور ان تجتمع القوة والسلطان والثروة عند القمة . ومن هذه الحقيقة البديهية ينكشف

أمران : أولهما هو ان جاذب هذه الخيرات المشتهاة كانت تـدفع اصحاب الطموح والمقدرة الى بلوغ قمة الصدارة فلو كان مضطرا ان يحمل معه الخيرات والثروات والقدرات الى قمة خالية ماتجشم العناء والمخاطرة بروحه وماله للحلول في بنك مفلس .

ثانى الامرين هو ان تأثير الفرد المحتل قمة الهرم الأجتماعى في التأريخ يعود جانب كبير منه الى السلطة والاستطاعة الممنوحة للمقام نفسه . صحيح ، ان مزايا الفرد لها دورها الكبير الحاسم ولكن صحيح ايضا ان الفرد الممتاز لايستطيع ان يكون الحاكم بأمره فى مجتمـع رست موازينـه على تـوزيع السلطة الا في انـدر الاحوال فلقد تمكن المسترچرچل ان يقود سياسه الحرب الى النصر ولكنه عجز عن كسب الانتخـابات . ففى الحـرب كانت ارادة النصر للشعب البريطاني وتضحيته من اجله مسايرة ومؤيدة لمزايا المستر چرچل ولكن رغبة جماهير الناخبين لم تكن مؤيدة لاتجاه قائد الأنتصار .

بناء على هذه الحقيقة التى توضح العنصـر الأهم في قدرة (الفرد في القمة) وهو عنصر اجتماعى ، لاداعى لتوجس المفكر المادى من الاقرار بما هو حاصل من تأثير الفرد فى التأريخ فهو على اى حال أظهر من ان ينكر و إن فرمانا من السلطان قبل ثلاثة قرون كان يحدث من التغيير والتعمير أو من التدمير اكثر مائة مرة مما تحدثه عشرات المظاهرات الفاشلة فى المطالبات الجمـاهيريـة . واشارة تلفونية من القمة المقتدرة في عصرنا تفعل ما لايفعله شئ آخر . وهذه التأثيرات تقع بشكل مستمر دون انقطاع فهى في تفاعل دائم مع الاحداث وليست في الأحوال النادرة التى يغرم بها ويتعب في

تصويرها وتبريرها المفكر المفتون برد الاحداث الى الاسباب المادية المقبولة في نظريته . والمفتون بالنظريات نفسه يتقرب من قمة الهرم في بلاده اذا كان ساعيا في مصلحة خاصة وبالقمة في بلد اخر اذا كان منفذا لسياسة حكومته ولايلجأ ابدا الى الجماهير العريضة لتمشية عريضته او اهداف سياسته .

وتأثير القمة لايكون باتجاه الخير دون الشر وليست له قاعدة مقررة في حتمية جذب المغناطيس للحديد . وليس من شك في ان اتجاه القمة نحو الخير يكون باب الفرج ومنبع الامان . وليس حتما ان تنتصر القمة الخيرة وتنكسر الشريرة . ولا يقلل من دور الفرد في القمة انه اذا لم يكن هو موجودا كان سيأتى غيره فيملأ مكانه فالقمة هي القمة وشاغلها هو فرد وليس الاف الأفراد وتبديل القمة لايأتي بنتيجة واحدة الا اذا كانت القمة البديلة نسخة ثانية لسلفها . ولقد اتى عمر بن عبدالعزيز بشئ ماسبقه فيه سابق ولالحقه فيه لاحق .

فانت ترى ان دور الفرد في القمة حركة متصلة لا انقطاع لها على كل الاتجاهات . والتفسير البشرى في هذا العرض واضح من حيث انه ينظر الى الانسان كما هو وجودا وتصرفا ولايحجبه وراء شفوف النظريات ووسائل الانتاج مخلوقاً مسحوبا من لحيته نحو أمر محتوم . فاذا وجدنا في التأريخ مفتوناً أو مأفوناً أو مجنوناً يتربع على العرش الموروث بلا تعب ولا عقل ثم رأيناه يأمر فيطاع ويسوق الجيوش شرقا وغربا يدمر ويسخر ويقتنى الف جارية والفى خصى لم نتجاهله بسبب عدم تالفه مع القوالب النظرية التي افرغناها سلفاً للتأريخ ولم نستكثر على منصبه الخطير ان يمنح شاغله

قوة كبرى فلو وضعوا مكانه (عجلاً جسداً له خوار) لأطاعه الناس فيما لايستطاع .

صحيح ، ان الانسان يركض وراء ماهو بنظره مرغوب مدفوعا بقوة (محاولة البقاء) وليس بالتناقض الطبيقى من قديم الزمان ، ويهاب قوى غامضة لايفهمها ويسترضيها على طريقته وقد يتمرد عليها ولايوليها اعتبارا ولربما قدس البقر وسجد للحجر وقد لانجده عبر التأريخ بذل ذرة من احترامه لوسائل الانتاج التي يصنعها بيده أو يشتريها من السوق . انه يفعل الشئ وضده لاسباب يقدرها هو ، ولكنه يكون مسخراً ومقسورا على مايكره بيد (انسان) حائز على المادة أو المهارة أو الشخصية الطاغية ولا تستطيع الآلات والمصنوعات المبتذلة في سوق البيع والشراء ان تقبض عليه وتكبل ارادته لابنفسها ولا بماتمثله من مرحلة تأريخية أو نظام اقتصادي . انه كان يعبد صنما ينحته من صخر بما يمثله من التعبير عن الغيب لالكونه صخرا منحوتا . وتتجرد آلة الانتاج من كل معانى الاحترام لفروغها وخوائها من أى اعتبار غير مادى فقد كان الغرض الدنيوى الذي تستعمل فيه الالة كافيا للتدليل على ان الالة هى هذا الشئ المسطح المفهوم الخالى من أية دلالة على المجهول المرهوب . لقد وجدنا انسان الادغال يعنو ويتصاغر للمصنوعات الحديثة المحيرة بسبب أنها كانت فوق تفسيره الدنيوى للأشياء فظنها هابطة من السماء أو متصلة بالسحر . وليس يعنى شيئا في موازين التسخير والمطاوعة عند الفرد والجماعة ان يكون الشخص المسيطر قد ارتفع الى السلطة بمقتضيات المصالح المعتبرة في المادية الجدلية أو بالأرث الأرعن أو بالحيلة الماكرة فالقمة ممتلئة بشاغلها دواما والناس له طائعون .

وقمة السلطة ان كانت لا تعشق الجماهير أو تتغزل في المفاليس فانها يقيناً لاترتاح الى أصحاب السلطان الخطير من حوله لخوفها من بطشهم وقد صدقت تجاريب عشرات الدول لمئات السنين صواب هذا الخوف فما سملت عين مليك أو صلمت اذن أمير الا بيد المقربين منه .

قمة القمم في الهرم الاجتماعي تمثل مصلحة خاصة بها تتميز كلية عن مصلحة سطح الهرم الناقص تحتها وكانت مشاكل البلاط قديما تخلق للقمة صداعا دائماً لا تستشعره من مشاكل الجماهير . ومؤامرات البلاط على القمة تفردت بخطورة مباشرة على وجودها لايقاس اليها اي سخط جماهيري من البعد السحيق . والصراع على السلطة كان عبر الازل أشد ظهورا من الصراع بين الطبقات . ويرفض المنطق ان يكون الفلاحون بملايينهم الكثيرة صارعوا قلة الاقطاعيين في كل زمان ومكان خلال خمسة الاف سنة ولم يستطيعوا مرة واحدة ولا في موطن واحد ان يزيحوهم ويدفعوا شرهم . ويزيد من وضوح هذه الحقيقة ان القوة الضاربة في يد السلطة من جيش وشحنة [شرطة] وأتباع في الحريم والقصر كانت في غالبيتها من ابناء الطبقات الدنيا فكيف استأمنتهم على نفسها واستمات أولئك في الدفاع عنها اذا كان الصراع الطبقي بين الحاكم والمحكوم على الحدة والشدة المصورة في النظريات ؟ مفهوم ان يستعين السلطان المستغل بالمرتزقة من الأجانب في شكم غضب الناس من بني قومه ، وهذا ماوقع في احوال نعرفها ولكنه كان شذوذا من القاعدة العامة . وفلاسفة الجدليات يعرفون هذه الحقيقة ولكن الظاهر انهم وجدوا في تضخيم النضال الطبقي في ماضى الزمان حافزا على شحذه في

ازماننا وما كانوا في حسبانهم مخطئين !! على كل حال فان الكلام في هذا يجرنا الى فكرة التناقض الشاملة للصراع الطبقي وغيره من الصراعات والتناقضات في الطبيعة والاجتماع ولايتسع لها الطوق في مجال هذا المقال وان كان لتجريدها من المبالغة في أثرها دور خطير وحجم كبير في مجمل افكاري .

العنوان الثاني هو الفرد في القاعدة :

وهنا حقيقة دور الفرد في مجمل الاجتماع والحياة الانسانية فهو اساس كل شئ في دنيا الانسان سواء بصفته فردا متفردا أو فردا في جماعة . ويصح النظر الى الفرد في القمة على انه فرد من القاعدة ارتفع في السلم الأجتماعي . ويصح النظر الى المجموعات المنتظمة في نقابة أو جمعية أو مؤسسة على أنها أبنية بشرية من افراد تماثلت احوالها ولا يشذ عن هذا المنظور اي تنظيم في السر والعلن ، والخير والشر ، والجهل والعلم ، في الألحاد والأيمان ، في البدو والحضر . فحيثما وجدت الناس مجتمعين أو متفرقين في السلم والحرب فما هم الا الأفراد ضمتهم احوال ومصالح ومقتضيات هي بالأصل من صنع أفراد البشر تعاونوا أم تنافروا ، تفردوا أم تجمعوا ، اصابوا أم اخطأوا . ولم ينهض التجمع البشري ابتداء الا لان الفرد البشري محتاج الى هذا التجمع ومستأنس به ومستفيد منه ، فليس التجمع ترفاً يمكن الاستغناء عنه . ونحن حين نسمى (الفرد) نعنيه بصفاته البشرية التي تميزه عن بقية الوجود مضافا اليه غرائزه التي يشاركه فيها اصناف من الحيوانات . وواضح ان انضمام الفرد الى الفرد في العمل يخلق سانحة لا تنفتح بوجه الفرد المتفرد فاذا انضم اليهما ثالث اتسعت دائرة الامكانات بأكثر من نسبة الثلث . وهذه حقيقة لاينقضها ان

المصلحة المتميزة للفرد الواحد المندمج في الجماعة تدفعه الى الابتزاز من غيره أو السطو على حقوقه أو تضليله بنية الاستغلال ، فالحياة الاجتماعية التي ينشط فيها الأفراد والتنظيمات معادلة بشرية ذات عوامل لاتحصى تتفاوت فيها حظوظ الافراد لأسباب خارجة عن الحصر . ومهما تكن نسبة الشر فيها الى الخير وايا يكن نصيب الافراد في دساتيرها تبقى ضرورة الاجتماع قائمة بالنسبة للجميع فان المتسول يموت جوعا اذا تناثرت حبات المجتمع البشري .

لعبة الاجتماع في اول ظهورها وعلى مدى الاف السنين كانت تستمر بعفوية مقبولة في بديهة الافراد والجماعات فيتقبلون نتائجها بلا امتعاض ملحوظ فهي لم تنشأ في الأساس بتخطيط متقن موزون النسب محدد الأهداف حتى يعترض أحد على جريان الأمور مخالفاً للمنتظر . وحين نشأت الطبقات كان نشوؤها بحسب طبائع الأشياء ومقتضيات الحياة وليس بحيلة انسان ماكر خبيث الطوية أو جماعة من الماكرين الخبثاء امتازوا بفرط الذكاء واتساع الطمع حتى يستثير شذوذهم عن القاعدة وغلوهم في الأسئثار نقمة الآخرين فقد كان كل فرد في المجتمع يشتهي ان يكون واحدا من الجماعة الأكثر حظا ويسعى الى ذلك بل يحتال له بما في طوقه من اساليب الأحتيال ويقبل منه ذلك شريطة الا يخرج فيه عن المألوف فقد كان الجميع مشاركين في اللعبة بالأساليب المألوفة . وكان احترام القوانين والاعراف المستقرة والرضا بأحكامها من باب الأستسلام للمقضى المحتوم . والمنغصات من فقر ومرض وبلاء تحل بهذا وذاك حظ مقسوم وشر لايدفع في مفهوم العامة . ومن المستبعد الا تكون الأمور على هذه الشاكلة في ازمان

لم تكن ظهرت بها ضمانات اجتماعية تحاول احلال التعادل بين القهر والأستئثار ولا انتشرت فيها فلسفات مفهومة تدعو الى اعادة النظر في احوال تشبع فيها فئة وتجوع فئة ، فلم يكن يجد الفرد الا وسائله المتيسرة له في مغالبة ما يكره . وواضح ان تفضيل الذات كان قديماً ومايزال أحد عوامل السلوك عند الفرد والجماعة ولم يكن الانسان قد تعلم منذ القدم فلسفة الخلق العالي حتى تردعه عن سلوك تشتاقه نفسه ونفوس بقية الناس أو عن طمع مقبول في طبعه وطبع بقية الناس . ومن شأن حب الذات ان يكره الفرد ظلما يقع عليه وحده بأكثر من ظلم يقع عليه وعلى الناس فهو ينشط في خاصة حالته بزخم اكبر فنراه يدفع سارق خروفه في عنفوان لانرى منه عشره في حماية ثروات بلاده من السطو الأجنبي والأستغلال الداخلي المريب . ومن شأن حب الذات ايضا ان يكون ألم الفرد فى ضياع دينار له اكثر من شكره على دينار يتلقاه من غيره . فالفردية طبيعة أصيلة في الاحياء لاتختفي الا اذا حكمت الغريزة باختفائها في حالات حفظ النوع ولا تضعف في الانسان الا في المراحل المتقدمة من الحضارة بسبب التربية الأجتماعية وبسبب توقف مصلحة الفرد على المجموع . ولهذا نرى الفردية في القرية اقوى منها في المدينة لقلة المصالح المشتركة التي يلتقى فيها الفرد بالمجموع في القرية ، فقد لاحظت في حالات كثيرة ان الأمور المشتركة بينهم تكاد تنحصر في مناسبات العرس والمأتم وفي بناية المسجد ومضيف المختار وساقية الماء وفي ما يسمى الفزعة عند حلول الكوارث من جراد أو نار أو سيل .

ومن طبائع الأمور أن يقل اكتراث الفرد قبل الف عام وثلاثة الاف عام بالذي يحدث في المستويات العليا من المجتمع

وكيف يتصرف الوزير والأمير فتلك اشياء كانت في المعتاد خارج دنياه وما كان في تصوره ان انشغاله بها شئ معقول او إنها تستحق منه غفلة ساعة عن حصاده أو غنماته . لقد وجدت اهل القرية يركبهم الفزع اذا رأوا شرطيا في مضيف المختار فهو مخلوق من عالم آخر مارأوه ساعياً في خيرهم .

ونستطيع ان نمتحن الفرد في شتى احواله قديما وحديثا ونرصد تصرفه ونقيس مدى انخراطه في الشعور العام من زمان الى زمان . وبامكاننا فرز مجتمع بعينه والرجوع الى ماضيه نازلين منه الى حاضره متلمسين الخيوط التي تضافرت عبر الأجيال لنسج حبكته فميزته عن مجتمع آخر في العقائد والعوائد والقيم والفنون والمسكن والملبس والمأكل واللغة وسائر الشؤون معتمدين على اختصاص جملة من علماء التأريخ والآثار والاجتماع والنفس والنبات والميثولوجيا والاقتصاد والقانون و . . . و . . . ان لم يكن بالدقة التامة فبقدر من الاصابة تكفي لبناء تصور مقنع في الجملة . والرجوع الى رأي العلماء المختصين في التفاصيل شئ لا يستغني عنه في تجنب الزلل الذي يتعثر بخطى الباحث الناظر الى البشر من كوة واحدة والآخذ بالعلة الواحدة في كل شؤونه . والتحليل المبالغ فيه أمر مرفوض فى تسبيب الظواهر الأجتماعية فانه ينبغي التوقف عند الحد الذي تحافظ فيه الظاهرة على حبكتها ومعناها ، فكما انه لايجوز الرجوع بالقمامة والفضلات عن سبيل التحليل النهائي الى مستوى الطعام الجاهز للأكل بدعوى انها جميعا تحت المجهر وفي التحليلات الكيميائية شئ واحد كذلك لايجوز إبطال قدسية الرابطة الزوجية عن سبيل التحليل النهائي والقول بأنها في الأصل وليد حاجة اقتصادية . وحب الوطن فكرة

قائمة في النفس وان كان في التحليل النهائي استئناس الانسان بمحيط ضم مصالحه ومشاعره وعلاقاته . والاقتصاد نفسه هو في التحليل النهائي وليد حب الانسان للبقاء . فالأشياء المادية وغير المادية تؤخذ على انها ذات وجود شاخص وصفات دائمة .

ومهما أتينا بالادلة واستطردنا في هذا الباب من حيثيات البشر فهي لاتخرج عن متعلقات الفرد في فرديته وامتداده الأجتماعي ، وليس العكس صحيحا فقد ينقطع الفرد عن العالم شهرا وشهرين في اهتمامات لايحسها المجتمع ابداً ، وبعضها من التفاهة بحيث لايعود اليها الفرد نفسه واذا عاد اليها زاد خسرانه وتضاعف عبث مايفعل .

وليس مما يتسع له نطاق هذا المقال أو اي نطاق على الأطلاق ان نعرج على احوال الفرد من المهد الى اللحد ومن القديم الى الحديث وفي تفرده واجتماعيته ، ولو اقتصر الكلام على موضوع الحرب وكيف انبعثت ابتداء وماذا تعني في موازين الانسانية ولماذا تنبعث وأين منها المهرب وكم منها حتمى وكم منها احتمالي لما بلغ الكلام فيها نهاية . وقس عليها اي موضوع آخر يخطر على الذهن وليكن في فرع من فروع علم النفس التحليلي او السلوكي فهو على التحقيق اعرض من مساحة هذا المقال فلا محيص من الخلوص أو العودة الى العنوان الذي اخترته ثانيا وهو (الفرد في القاعدة) بعد هذه التمهيدات الساذجة التي ليست الاشطحات هنا وهناك على اديم لوحة لاتملؤها مليون شطحة .

ان الذي يهمني من دور الفرد بالدرجة الاولى الى الدرجة العاشرة ليس ما يفعله وهو بطل يتربع على عـرش التأريـخ كل بضعة قرون مرة واحدة . ان الذي يهمني هو ماذا يفعل البقـال والجمال والمعلم والكادر الحزبي والطبيب وسايق السيارة وعامل البنـاء وبائـع المرطبـات والجندي والضـابط والخياط وافـراد كل الشرائح والاصنـاف والطبقـات في المجتمع . يهمني دورهم في الحيـاة طولا وعـرضا وعمقـا فهو معنى الحيـاة ولباب الاجتمـاع وعصارة التأريخ . وحين نترقب ظهور البطل التأريخي على مسرح الحياة لانتظر منه ان يرسم اقواس القزح في الافاق المشرقـة بل قصارى قصاره أن يـزيح العـراقيل في درب هؤلاء الافـراد غير التأريخيين . انا وانت ودارا وسميث ومئات الملايين من المغمورين امثالنا في وهج العظماء والكبراء والخطراء والنبلاء نطمع في استعادة بعض من مسلوب حقنا وشئ من ممنوع راحتنا وجزء من مهدور انسانيتنا اذ نديم النظر في درب البطل المنتظر واطلالته على عالم البؤساء . . فماذا نحن وماذا مئات الملايين من امثالنا خلال مئات الاعوام التي لايطل فيها بطل موعود ؟ واين دورنا في التأريخ وفي الاجتماع ؟ أم نحن لاحظ لنا في وليمة التأريخ ؟

ادرك بـوضوح ان الجمـاهير في اكـثر بلاد الله تتسكـع في هـوامش مراكـز القدرة التي تصنـع القرارات الخـطيرة بـالحرب والسلام وتؤثر في الرخاء والفقر وترفع المصائر وتخفضها . وهي ـ الجماهير ـ لاتعلم كم هو اعتبارها في ذهن منظمي المعـادلات الكبيرة في تلك المراكز . وهي فوق هذا وذاك بعيدة حتى يـومنا الراهن من الوقوف مواقف تستلزمهـا تحديـات العصر وخـاصة مصالحها بل إنها ـ الجماهير ـ تتصف بداهـة بكل الخصـال التي

حالت دون مشاركتها في القرارات الخطيرة وكلها مؤسفة مؤسية . واعلم انها تستغل وتساق في غير مصلحتها وكثيرا ما تتفانى في انشطة لاتحقق شيئا من اهدافها وقد تسير في اتجاه معاكس لوجهة المنفعة المشروعة وغير المشروعة ، فالعيوب في مجمل السلوك الجماهيري كثيرة وبعضها كبيرة . وما يقال في الجمهور يقال في الفرد فليس يتعامل في المصلحة والمهلكة بالاسلوب الامثل ولاما هو قريب منه وغالب الاحتمال الجيد في سلوكه ان يكون وسطاً . على ان الفرد بالقياس الى الجمهور يكون في المعتاد ادرى بالمصلحة واشد حذرا من الخطأ والضرر وذلك لاسباب كثيرة منها ان احساس الفرد بالاشياء طبيعي ينميه الأجتماع واحساس الجمهور كله مكتسب من الاجتماع . والفرد دائم التعامل مع المحيط وفي مصلحته الخاصة بكل قابلياته اما الجمهور فهو ينشط في المناسبات التي تستفز احساسه بالواجب أو المصلحة ولايمكنها قطعا ان تقف في الطابور بانتظار الواجب ولو فعلت ذلك مات افرادها من طول الوقوف . والفرد في الغالب يحتك بافراد يماثلونه باسلوب العمل والقدرة على الحدث ، والجمهور لاينهض الا حين يكون الحدث ذا ابعاد في نهاية واحد منها على الاقل اقتدار فوق المعتاد . واقول قولي هذا بصراحة لان المجاملة لاتضع السكر في المر ولا تفيد المحقوق او تكف يد الباطش . ولربما كان ولوجي الى دور الفرد بعد سرد العيوب والسلبيات اكثر يسرا واخف مغبة فاننا ملتقون بهذه العيوب على اي حال فيكون سبق ذكرها مانعا من المفاجأة ودافعا للحرج .

الفرد في صورتيه (الفردي والاجتماعي) على علات احواله وبكل قصوره وفتوره وقلة نوره هو صانع الحياة وباني المدن ومالئ

السوق والمدرسة . وحين يخرج فيلسوف الاجتماع والتأريخ من صومعته لايجد في الشارع عملاقا تأريخيا توازنت عظمته على معادلات االتناغم بين قابلياته القيادية القاهرة وبين ثورية الجماهير الباهرة ، بل يجد نماذج بشرية من ابسط المثل تتخطاها العيون ويفلتها الاحساس . . هي في نظر المتحرى عن الشئ المثير تبدو كالنمل لايمتاز بعضها عن بعض ولولا تمايزها بالملبس كانت (كالجراد المنتشر) . هؤلاء الافراد وهم (من كل حدب ينسلون) مشحونة بالخواطر تكاد خطاها تشى بما يعتمل في دخيلتها من قلق وأمل وطمع وخوف وهداية وغواية هي لولب الحياة وأس الاجتماع ولبنة التأريخ : هي كل الالوان في قوس المدينة وقزح الريف يرسم بها البطل والمبطل واشتات الغالبين على اقدار الناس لوحات الاقتصاد والسياسة والمهرجانات والحروب ويرقصها زمار المظاهرات والمسيرات والتمردات وصلوات الاستسقاء على انغام اليمين واناشيد اليسار . . هذه الافراد التي هي انت وأنا ومليارات (الأنات والانتات) تحمل على ظهورها وقر عشرة الاف سنة من الكدح والعرق والدمع والدم . بعضهم فوق وبعضهم تحت . فيهم اللامع والكالح ومن كل مقاس يتصوره العقل . هم فرحة الشامت وغصة الكظيم ونور المحافل وظلام السجون . . هم البشر كل البشر في القواعد والقعور واعماق البحور ، في خاصرة الجبل وفوق القمم : اذا عممت فيهم القول وساويت بين من لايتساوون في اسفل الدركات واعلى الدرجات فقد أصبت على وجه من الوجوه المقنعة فانه يحصل على مدى الزمان انقلاب عالى الاشياء سافلها فيحل صاحب الدرجات في الدركات ويصعد آحاد من القعر الى السطح السوى . . وبامكانك ان تقسم الاحاد الى

عـدد لايحصى من الدرجـات والمستويـات في السلوك والـذكـاء والجمال والنشاط وروح البذل والمشاركة الوجدانية ومن معكوس هذه المعاني من كل الوجهات . وللك ان تفـرقهم شـذر مـذر في طبقات وشرائح واصناف وعقـائد ونـزوعات وطـرائق للمعيشة وروح الطائفية والقبلية والاقليمية والعرقية والوطنية وتشرذمهم في أطر هذه المعاني متفرقين متناوئين أو متهادنين الى حين . . فهذا شأن البشر لا يفسره الا صفاته البشرية التي تسلكه في كل مسلك يبتدعه هو نحو النور أو نحو الظلام فانه يصوغ الصنم ويسجد له ويسيح بين الكواكب في مراكبـه الفضائيـة ، فما من اقتصـاد او اجتماع أو مصلحة مادية أو معنوية أو علم أو جهل كانت قابعة في الطبيعة ففرضت نفسها على البشر من خارج قابلياته المترواحة بين الرفض والقبول والصلاح والفساد والقبح والجمال ... هو بكل عيوبه ومزاياه ينبوع التأريـخ والاجتماع ولـو ألغيت من طاقـاته الواعية ذلك النتوء الذي هو بمثابة سنـان الرمـح رجعت به الى الحيوانية العجماء بلا علم ولا اقتصاد ولا لغة فيروح يثغو ويمـوء ويخور أو يرطن ببغام يضاف الى قائمة الحشرجات الخارجة من لهاة البهيمة . وتستمر الطبيعة هي الطبيعة بأرضها ومائها وسمـائها وذهبها وتنوع مناخها وتعاقب فصولها وليلها ونهارهـا لاتغرى ذا روح برتق أصغر فتق أو نظم أو هي بيت للشعر أو الشعر أو تلفيق تعويذة من تأمتين . . فتكمن هذه البداعات وغيرها في كل المسافة بـين المقلاع والنـوويـة ومن عمليـة الجمـع البسيط الى النسبيـة احتمالات في حشايا الوجود بانتـظار (جودو) أو هـرقل الكـون وعنتـره متمثـلا في بشـري يفهم ويفعـل وينفعـل ويـدب نحـو المعجزات .

ديدنى وهمى هو دور الفرد في هذه الحياة التي نمارسها على مدى العمر في مستوياتها القعرية التحتية بلا بطل ولا يحزنون فهذا الدور رغم حظه المتواضع في درجات القوة والسلطان هو أقصى مانملكه وملكه قبلنا مئات الاجيال المنقضية . وسواء ادخلنا في معادلاته تصارع المدارس الفكرية والسياسية والاقتصادية وتنافس ذوى الأطماع من الافراد والجماعات على الأطايب أم لم نَدخل فيها شيئا من ذلك ، وسواء كانت هذه الحيثيات موجودة ام معدومة في واقع الأمر فان دور الفرد في المعيشة اليومية لايتعطل ولايتأجل ، وخلاياه السنجابية في مخه تتذبذب في الخير والشر وتحوك خيوطها في النور وفي الظلام ، وتستمر عملية الهدم المدمر والمعمر ويطرد اتفاع كفوف الموازين في دكان البقال وتستطيل اخاديد المحراث في وجه الارض تخمشه بحنان ، وتنزل الضربات على الظهور وترتفع التضرعات الى بارئ النسم ويتمسح الحجيج في المعبد الذهبى والحجر الاسود وترتفع الأدخته من نعش فلذة نهرو الخالد ويشخبط مسعود محمد تهويماته على السجية وتتوالى قوائم الماء والكهرباء والهاتف وتصطف عقد المشاكل في جانبى خيط المسبحة من ليل ونهار ، ومكبرات الصوت تذيع قران الموتى أو موسيقى الحالمين وتمضى الحياة لطيتها على أكمل وجه وأشده نقصا في ان واحد . هذا نصيبنا الذى يصيبنا أو نصيبه وهو متفاوت من بلد الى بلد ومن بيت الى بيت ومن فرد الى فرد ولكنه حظنا الذى لانملك غيره ولانستطيع أن نرفضه لانه قليل وسيبقى حظنا قليلا مالم نجد طريقة صالحة لتكثيره وتوزيعه بالعدل الممكن . ولا اناقش هذه الطريقة فلتكن ماتكون لانني بسبيل استعراض دورى ودورك في الحياة التى تنبعث من داخلنا ومن حولنا واستطلاع وجه

هذا الدور في ضوء البطل الذى يطل علينا مرة كل مائة عام وهو دور كبير كبير وخطير خطير لولاه ماعشناو ماعاش مستغلنا ولا بهر الدنيا بطل مضى وبطل منتظر وسكنت المدارس المتصارعة وسكتت الألسن المتلاغية و (اقفرت اذخلت من دونه الدار) !!

موازينى في حساب الربح والخسارة وامتحان الزيادة والنقصان تقول ان هذا الدور المتصل بالخير والشر والملتبس بالصلاح والفساد والنفع والضرر بامكانه أن يضاعف نفسه ويزيد خيره لكل الأفراد اذا وعى ذاته وادرك امكاناته وهو باق حيث هو في مطارح الضعف من قاعدة الهرم . انا افهم بالطبع ان الخير العميم والصلاح الوفير يتحقق يوم يكون الخير والصلاح من طبائع النظام المتبع في اي بلد بالعالم ولايكون متوقفا على نية الناوى وطوية الطاوى من الأفراد . افهم هذا وأؤمن بان كفاح الفرد والجماعة من اجل الأصلاح الجذرى واستئصال الشر واجب مفروض وقدر مقدور . . اقر بهذا ولا اثير بوجهه الاشكال المتمثل في تعذر الاتفاق على المنهج الحقيق بتحقيق الغاية المبتغاة والمصورة في الفلسفات واترك كل مغنٍ يغنى على ليلاه فسيبقى بعد ذلك حاشية عريضة من الفهم المشترك في ملتقى أو مفصل القناعات المتباينة والمناهج المتفاوتة يمكن ان تكون متنفساً أو مراحا تلتقى فيه الحدود الدنيا من تماثل الأراء والقواسم المشتركة من دواعى التعايش لسائر الأطراف في الامور التى هى من صلب المصالح الحياتية مما لايثور حوله نقاش فلقد وجدنا الأطراف المختلفة تلتقى في الجبهات الوطنية على اهداف خطيرة بالسياسة العامة فما الضرر في ان يكون التفاهم بينها على الأهداف البريئة الخالية من مساومات (المناهج العليا) تفاهما مستمرا ودستوراً متبعاً وعرفاً

مقبولا بصرف النظر عما يكون او لايكون قراراتها في ميادين السياسة والستراتيجية الخاصة بكل منها . والجبهات الوطنية قد تنتقض وتتبعثر ولكن يدوم بينها القاء التحية في الصباح وتهادى الفاتحة في الماتم . وبافتراض أسوأ الأحتمالات وانقطاع كل تواصل بين الاطراف السياسية المتباعدة فانه يبقى في الميدان اولئك الالوف والملايين من الافراد الذين لايمارسون السياسة عن طريق الانتماء الحزبي ولايقطعون التراحم والتعايش لسبب خارج عن معاشهم ومصالحهم فبأمكانهم ان يلتزموا حد الممكن من الاكتراث بالسلوك السليم في التعامل ، وكثرتهم الكاثرة تخسر في الاخلال بالموازين وشيوع الغش وخيانة الامانة وتجاهل المسؤولية . ذلك ان القدرة على الاستفادة من الحرام من امتيازات القلة . لقد سمعنا بان ربات البيوت السويديات قاطعن سلعا ارتفعت اسعارها لغير سبب مقنع ومارجعن اليها حتى عادت كالعرجون القديم . ورأينا في بعض سنوات ازمة الكهرباء شموعاً من صنع بلدنا باطنها الماء فما تحرك انسان لرفض هذا الخداع لابالمبادرة ولابالمقاطعة وفي كل ركن من اركان حياتنا على كل المستويات والوجهات اشياء معوجة يكاد يكون سائر الناس مشاركين فيها على صورة من الصور . ورب قائل يقول ان الغلة في بيدر كل واحد من المعوجين تعوض عليه مايخسره في اعوجاج غيره فاقول ان هذا وهم من الأباطيل لان قلة من المعوجين الممتازين يستفيدوون بفضل ضخامة المصالح التي يعوجون فيها أما البقال الذي يسلى نفسه بسرقة عشرين غراما من كل كيلو فاكهة يبيعه للناس فهو بسبب اضطراره الى قبول نقص الوزن وزيادة السعر من البزاز والعطار والنجار والخياط وبائع الخضر والقصاب يكون

قد خسر كثيرا أو قليلا في لعبة الاعوجاج ومعه جـزء من نظافـة الضمير . والمستفيد الحقيقى في استقامة الموازين واستواء السلوك هو الفرد الاعتيادى الذى لاحول ولاطول له إلا في ذاته فانه اذا كان عليه بحسب النظريات ان ينتظر البـطل التأريخى ليمشى وراءه ويضم باقة من سنابل الخير في اعقابه مرة في مئتى عام فليس يملك الا ان يمشى وراء نفسه بشئ من الفهم وشئ من المصلحة وشئ من الكرامة ولا اشتـرط عليه تحمـل الصعاب الخـطيرة فليتـرك المحاولة اذا وجد ان الاعتراض على انتشار القمامة في الشوارع يستعدى عليه اجهزة البلدية ويسد بوجهه باب الأحتماء بالقضاء فانه اذا بلغ السوء هذا المدى لم يعد الفرد ولا الجماعة يستحق عناء الالتفات اليه ولا يكون للالتفات جدوى من الاساس .

كلامى موجه الى هذا الفرد الذى اراه جلدا نشطاً في النهزة السانحة وفي النعمة العابرة والطائرة فاخاطب فيه هذه القدرة على استشعار المصلحة الشخصية على البعد السحيق واستخلاصها من الخطر الوبيل وألفتُ انتباهه الى المصلحة الحلوة المشرقة المتمثلة في الخير النظيف الذى لايشوبه مخاطر التهريب والـرشوة والكـذب وكسر الأعناق . ومع علمي اليقين بصعوبة الدوام على النظافة في ظـروف موضـوعية [بشـرية !] تحتفى بـالتلوث يضـاف اليهـا ماتستلزمه ابتداء من محاولة فرضها على الواقع من موقع الضعف فان المحاولة جديرة بالتجربة فهي غير مستحيلة وخيرها مؤكد ينزل في رصيد الغالبية العظمى من الناس . وفي هذا البـاب مواقف مذكورة وقفها الناس قديما ضد الرذائل المتحدية لأحكام الشريعة وقدسية الأعراف ونجحوا فيها ثم ان المناضلين والثوريين يتصدون

لما هو اخطر بكثير على مدى عشرات السنين بتضحيات جسيمة فلا يوجد تكليف بالمستحيل في قولى لهم ولغيرهم من الافراد ان دورهم الأول والميسور في قائمة الادوار ان ياخذوا انفسهم بالحد الممكن من التصرف الحضارى اللائق بالبشر . وكانت دعوتى الى زيادة فاعلية دور الفرد قد تضمنت تسهيلا آخر برفع التكليف في مواجهة الصعوبات وبهذا وقفت عند الحد الذى اذا نزل عنه المواطن نزل عن المواطنة والصفة الاجتماعية المميزة لبشريته .

مجموع الخير الذى يجنيه الفرد من اجتماع الخيرات القليلة المتحصلة من سلامة تصرف المتعاملين معه اكبر من الخير الذى يتحقق له من فتوحات البطل التأريخى مقسومة على ملايين البشر ، صحيح ان انتصار البطل الحاسم في اساسيات الحياة يعم خيره ويدوم في العطاء ويعفى الضعفاء من نصب انفسهم رقباء على الاحداث ولكن صحيح ايضا ان من الانتصار الحاسم ماقد يكون شرا من الهزيمة الحاسمة فليس لعاقل أن يرحب بافاعيل پولپوت في كمبوجيه تحت اي شعار ووراء اي تبرير يتفتق عنه ذهنه الوضاء . ويطول الكلام في الامثلة المماثلة ولكنى أمسك عنها . . ثم انه قد حدث في اجزاء كثيرة من العالم رفاه وأمان وتقدم عن سبيل استواء السلوك وسلامة التصرف والنمو الحضارى يفوق احلام البطولات والابطال ومايحاك حولها من قصص الأساطير . ورب قائل يقول ان هذا النمط من الكلام في دور الفرد كلام شاعرى تمليه العاطفة أو موعظة المتفرج في برج عاجى . وبفرض التسليم بصحة هذا الاعتراض فان الموقف العاطفى الداعى الى النظافة اولى من الانخراط في ما هو غير نظيف وهو على اى حال اجدى من السكوت ولن يفقد قيمته في تأكيده على حيويه دور الفرد واستمراره

على مدى القرون في قاعدة الهرم بغياب البطل . وعاطفيتي مغفورة حين اقارنها الى نضال عاطفى مارسه اكثر من جيل برمته منذ اربعين سنة عبر مهالك مادعت اليها ضرورة وعلى صورة من التشرذم والتناحر كفيلة باجهاض اى مخاض بالخير والبركة كان منتظرا أو مأمولا في الاقل .

على اى حال ان دور الفرد في المجتمع سيستمر سواء جاء البطل ام لم يجئ وهو لاينقطع في اى لحظة من الحياة وان انقطع البطل الى أبد الأبدين . غير ان كلامى هذا استهدف فقط تثبيت حقيقة موجودة لايلتفت اليها احد يتكلم في التأريخ والاجتماع على قدر علمى . وكلامى هذا لايشفى علة أحد وربما كان تأكد دور الفرد وثبات موقعه في الاجتماع والتأريخ ادعى الى التحسر على ضياع شأنه فهو رغم فاعليته في أسس الحضارة ورغم كونه لولب الحركة في الانشطة البانية الخلاقة بدءً بأصغر حاصد وانتهاء الى اكبر عالم فهو مسخر بيد غيره فيما لامصلحة له فيه ، ومدفوع في وجهات يكرهها ويرفضها لوكانه الخيار بيده ولا رأى له في التصرف بشئ هو يصنعه . وكان هذا هو شأنه الدائم في قديم الزمان ومايزال شأنه في كثير من بلاد الله . والمستغلون في القمم يكون ربحهم الكبير في التمتع بنعم لم يتعبوا فيها فما كان لاحد ان يطلب زوال ثرواتهم اذا كانوا احدثوها بكد سواعدهم أو بالتعامل المألوف بين الناس . والملحوظ ان توزيع الغرم والغنم يكون في معادلتين متعاكستين فيكون نصيب المستريح كبيرا في الربح ونفاذ الكلمة ويكون نصيب المغلوب على أمره كبيرا في الخسارة وفقدان الرأى . ومن الغفلة الفاحشة ان يفتخر الفيلسوف والمنظر بضخامة حصة المقهورين في بناء الحضارة فهو كالراقص في مأتم احبابه ، مثله مثل

تبجح القافلة بدسامةِ اموالها التي ذهبت الى قطاع الطرق . والمحنة الحقيقية التى يلتقى فيها المقهورون متمثلة في الغاء ارادتهم ثم في سلب كدهم . فالكادح في الحقل يتساوى مع عالم الذرة من حيث أنهما لايستشاران في الوجه الذى تستخدم عليه حصيلة جهدهما ويفترقان في الأجر بطبيعة الأشياء فقد يكسب العالم اموال قارون بعد مصادرة رأيه في التعامل مع منتوج عمله . ولا يعوض عليه هذه الخسارة اى تبرير مقتسر يريد ان يقنعنا بأن عالم ينويورك شارك في صنع القرار بأدلاء صوته في الانتخابات وأن عالم موسكو خول الأمناء الموثوقين حق التصرف بثمرة عبقريته . فصوت الناخب متاح للعصابات بوضوح أكبر والمؤتمن الموثوق في احسن الفروض لايبلغ العالم المبدع في حق التصرف بما يبدع . واذكر في هذه المناسبة جزءً من حوار بينى وبين صديق ناصرى في المراحل الأولى من ثورة مصر ، والحياة النيابية فيها معطلة ، فقلت في ذلك كلاماً منتقدا فأجابني بانه تكلم في الموضوع مع الرئيس جمال فكان جوابه ان صوت الناخب المصرى كان يشترى بجنيه واحد فقلت لصاحبى : ان يبيع الناخب صوته بمليم واحد اكرم له من ان لايكون له صوت .

في تجربتي مع المناضل الكردي عانيت الى حد الاستنكار من ظاهرة تحويل الرأي الى أهل الغرف العالية ، وكان في ذلك نسخة ثانية للمناضلين امثاله في الدنيا الواسعة ، وما هو الا امتداد لضياع المقهور في قاعدة الهرم وان كان المناضل يفلسفه على انه وحدة الرأي والضبط العقائدي وهلمجرا . . ومن مثل هذا المنطلق من تحلية المر وتجميل الأشوه وتسمية الشئ بغير حقيقته يفيض طوفان

الارتباك الفكري وزوغان النظر في المرئيات ومفارقة المنطق الى الضلال حتى ينقلب التذابح بين الأخوة المواجهين للعدو المتربص دستوراً ممنهجاً ومبرراً ومفلسفاً ومثورا وآية الآيات في الاخلاص للمبدأ والصلابة في العقيدة والثبات على خراب البيوت وهو نفسه علة التهاون في الامور الممكنة والتفريط في الميسور المريح عن سبيل التمسك بالحلول الجذرية تمسكا صوفيا يصارع المستحيل ويطلب المتعذر ويسوق الى المهالك بغير حساب أو عظة او انتهاء . ليس متصورا ان تتطوع القواعد في الحركة السياسية في محاربة الصديق وفي قلب نفسها وقودا دائماً للتطرف اذا لم تتلق على مدى الزمان كلاما مسربلا بالتقديس في وجوب الانصياع للالهامات النازلة من أعلى . لقد انقلب حق النقد في القواعد الى النقد الذاتي وانعكست الآية في القمم بانقلاب النقد الذاتي الى نقد القواعد وما لايعجبها من شر الامور وخيرها .

على اي حال لا تعارض ولا خلاف ولا اشكال بين ما اقوله من اغناء دور الفرد بتصحيح السلوك الاجتماعي في غياب البطل وبين استمرار النضال حيثما يجب أن يستمر . ولست اعاني فقرا في الأدلة اذا عارضني معارض بان الانشغال في غير الحلول الجذرية جهد باطل وحرف للنضال عن محجته فالحل الجذري اذا كان ممكنا في حد ذاته وفي الأحوال المحيطة بها لايكون سليم النتائج مالم يترعرع في وسط الناس المعتادين على سلامة السلوك فبقدر مايسود التحلل من القيم واغماض العين عن الاعوجاج يكون النضال نفسه متقبلاً للتهاون في الحق ومتضايقاً من ابى ذر الغفاري . ومسألة الحلول الجذرية واحدة من المسائل التي رفضتها بشكلها المعروض للمناقشة وفي صورتها المطبقة في النضال فقد عانت منها

انسانية الفرد الكردي وخصوصية الواقع الذي يعيشه الشعب الكردي مصاعب كبرى كان من افدحها ضررا تشرذم المناضلين الأكراد على أنماط من الحلول الجذرية كانت مستحيلة في ذاتها واكثر استحالة بتناحر حماتها وأشد اغراقا في الاستحالة من زاوية أن مجموع الكرد هم دون القدرة الكافية لتحقيق واحد من شعارات تلك الحلول الجذرية : لقد ساقت هذه الشعارات النضال الكردي نحو ادانة الممكنات وأناطت الآمال بالمستحيلات وربطت الأخلاص بالمغالات في اللاواقعية . ومنذ الوثبة ادركت عبث السعي في تحقيق المتعذر . وما اشد ما اعجبني في بعض تلك الايام كلام معزو الى موريس توريز ، سكرتير الحزب الشيوعي الفرنسي انذاك ، يقول ان السياسة هي فن ممارسة الممكنات . فيا لهذه البديهية المضيئة التي رفضها المناضل الكردي في عزوف يبعث على القرف . كم صك الأسماع هتاف الهاتفين بحتمية كذا وكذا فلم يكن اكثر من فقاعة نفختها حنجرة مغالية . ويصخب في صدري الف كلام وكلام في تسمية مواضيع التطرف في اليسار الكردي وبيان ما جره من شر بلا حدود ولانهاية ، ولكن لا اخوض فيه واتخطاه الى المامة خاطفة بالحتمية وقد ساقت المناسبة ذكرها فاني انتهيت منها الى اقتناع لاينسجم مع معناها الشائع فما من حدث معين بالذات وقع على سبيل الحتم الا وكانت مقدماته المستلزمة له قد تحققت قبلا وكان من الممكن الا تقع أو لايتحقق بعضها بالمقدار الذي يستلزم وقوع ذلك الحدث . والأمر الحتمي الوحيد في احداث التأريخ هو تطور البشر وتقدمه الى امام باطراد ، اذا جازت تسمية ذلك بالحدث . ويمكن حذف جل الأهمية المعزوة الى الحتمية بملاحظة ان المدافعين عنها يبرهنون على حتمية الأحداث

بعد وقوعها ، ويخطئون غالبا في التنبؤ بما سيقع . ويمكن اعتبار جل المحاولات الفاشلة نوعا من التنبؤ الخاطئ فالانسان لا يتعب نفسه فيما لا يظن انه واقع . على ان دور الانسان يكون اثمن مايكون في الامور التي لاحتمية فيها فهنا فقط يمكن ان يكون الجهد الواعي المخلص عامل الفصل بين الامتناع والوقوع ، بين الاخفاق والنجاح اما الشئ المحتوم فهو احرى ان يدخل في مفهوم آلية التطور :

كان من الممكن الا تنجح الثورة البلشفية .

كان من الممكن ان تنتصر المانيا في الحرب الثانية .

كان من الممكن ان تدوم الدولة الاموية فترة أطول .

كان من الممكن الا يغتال غاندي . . وهكذا .

وتخرج الأمور البديهية عن مفهوم الحتمية والاحتمالية ، مثل بداهة انتصار الاسد على القط واغادر موضوعها بترك حيثياتها التي لاحصر لها لضيق المجال .

لقد أطلت الكلام في دور الفرد لضخامة هذا الدور من جهة ، ولاننا لانملك غيره يسلينا أو يمنينا من جهة ثانية ، ولانه مهمل الى حد الانكار من جهة ثالثة ، ولو كان في قوس المقال منزع لشمل مبحث الفرد امورا في غاية السعة والخطورة في ما يتصل بفرديته وباجتماعيته وبتأريخيته وما يتصل بالتداعيات المتحصلة من اقتران هذه الجهات .

وتركت الكلام في امور كثيرة ذات خطورة خطيرة في بنية الجدلية لايمكن استيفاؤها في عجالات المقالة وكلها تقع مواقع خاصة بها في الصورة الأجمالية التي ارتسمت في قناعتي عن البشر في ضوء فرديته وجماعيته وتأريخيته . ومن نافلة القول ان الفراغ من

هذه المواضيع المترابطة المتشابكة المتداخلة ذات القابلية المفرطة في الاتساع والانداح لايمكن في مقال أو كتاب ولا يطوى في شهر أو سنة فهي خليقة أن تستغرق عمرا وتملأ سفرا ، وهي اذا حازت الاهتمام بعد نشرها اثارت جدلا مستعصيا على الانتهاء ويجد اناس كثيرون من عقائد متباينة مدخلا هينا واسعا يفضي بهم الى ساحة الحوار بمقادير متفاوتة من الحماس واللين فاذا روعى فيها محض الحق مزجت الانارة بالاثارة فطاب ثمرها . على اني لا احسب لذلك حسابا فيما اكتب فلست املك زمام افكار الناس وارادتهم حتى اوجهها الوجهة التي ارضاها وكفاني ان يسمح لي ببيان وجهة نظري ويفتح بوجهي باب حرية التعبير وكفاهم مني ان اصارحهم بحقيقة شعوري ووجداني دون مواربة . وليثق القارئ بان الفكرة اذا تأصلت وحلت في القناعة وتناغمت مع نقاء القصد أغرت صاحبها بالافصاح فاذا تأخر ذلك استفرغت صبره وثبتت فيه قلقاً لايهدأ . ولقد بلغ بي الحال حدا وجدت فيه السكوت ضربا من قمع النفس وقطع النفس . وتنامى عندي الشعور بصواب التفسير البشري للتأريخ والاجتماع حتى وجدت انه خليق بتصحيح الخطأ في اي رأي أو فلسفة لاتتخذ من الانسان اساس موازينها في حيثيات الانسان . وتناهي بي الوثوق الى قصاراه فرأيت انه على الجدلية التأريخية ان تعيد عملا قامت به في اول ظهورها فقد قالت أنها اقامت الهيغلية على قدميها بعدما كانت واقفة على رأسها فاليوم آن الاوان لتقيم نفسها على القدمين باتخاذ الانسان اساساً لتفسير التغيير والتوقف والتراجع والانفجار وكل شئ ، ووضع المادة في مكانها الطبيعي من المطاوعة والحياد و(الشيئية) ولتجرب احداث الماضي والحاضر وتنتقل الى المستقبل

في ضوء صفات البشر المضيئة والمعتمة واستعماله الفج والماهر للاشياء والمؤثرات لترى ان كان واحد من تلك الاحداث يتأبى على مجموع هذه الفاعليات ، ولتجرب وسيلة الانتاج والنظام الاقتصادي والمرحلة التأريخية واي شئ آخر يخطر على الذهن ، لتجربها في موازين قدرة البشر وعجزه فسوف يجد ان اتصاف البشر بتنوع القابليات الجيدة والرديئة وتفاوت احواله في الرفض والاستجابة ، وامكان انطباعه بأشد العقائد تنافرا ، وشمول تعامله مع الوجود باحيائه وامواته ، وسعة ساحة الاحتمال فيما يفعل ويترك ، كل ذلك يتيح خيارات للتفسير تساوى عدد الأحداث للفرد وللاجتماع وللتأريخ فالذي لايفسره الحب يفسره البغض وما يرفضه الايمان يقبله الالحاد وقد تفشل الفلوس وينتصر الشرف وهكذا . . فالبشر جامع الاشياء المتوافقة والمتضادة ومتنوع الابتداع في الزمان والمكان بخلاف المادة الميتة فانها ذات وجهة واحدة فيما تقتضيه طبيعتها ولاتستطيع ان تترك مقتضاها الى غيره . انها لاتخلق خيارا واحدا بنفسها في معزل عن البشر . .

القمح لايستطيع ان يفرض على البشر نوعا واحدا من التعامل معه ، انه لايستطيع اي شئ على الاطلاق ومن باب التسامح مع التعبير نقول انه لايستطيع ، لانه في موازين الارادة والاستطاعة صفر على اليسار . ستجد الجدلية ان التفسير البشري ينجح حيث تفشل هي فهي في الواقع تتحايل على فشلها عن سبيل تهريب البشريات الى ساحة الماديات ونصب البشر خادما للمادة .

انا اعلم بالطبع ان دعوتي هذه ضرب من العبث فان هذه الدنيا الفسيحة العريقة ليست بوضع تسمع فيه ما يقوله واحد مثلي فكيف بقبوله ، وهي نتيجة ادنى من البديهية حين اقارنها الى عجز الجدلية عن اقناع البنت العاملة المسلمة بالتزوج من عامل غير مسلم ـ على سبيل المثال ـ قامت الدنيا في الهند وخرج المستعمر ولم يتزحزح المنبوذ في مستقره وبقي القرد محترماً حيث كان ـ من باب المثل ايضاً ـ مليون بولندي ركع للبابا بعد اربعين سنة من تقنين الألحاد المؤزر بالنظرية العلمية ـ ايضا من باب عرض النماذج . . . ولكن صحة الرأي ليس لها برهان من كثرة متابعيه ولا ناقض لها من كثرة رافضيه . والصدفة وحدها أتاحت نشر هذا المقال في العربية فزاد قراؤها عما كان منتظرا فيما لو نشر بالكردية فلا يبلغ عددهم عندئذ واحدا من المليون من مجموع البشر . وقد يثور التساؤل عما يجب عمله بصدد المراحل التأريخية وكيف يمكن ترتيبها بناء على اساس ميزات البشر وتنامي ادراكه واتساع قدراته وانجازاته ، وهو تساؤل وجيه وان كان لايتسم بخطورة عملية لان المادية تبقى كما هي ولا تلتفت حتى الى نداء السماء في دعوتها الى تغيير الذات فلا يغيرها الا التعديلات المستأنية ضمن اهل البيت ويكون للفكر الاوروبي دوره الحاسم في ذلك عن طريق احزابه الماركسية ، ولايخلو ظهور الخلافات الخطيرة بين الدول الماركسية من أثر في تيسير اعادة النظر في المسلمات لمعرفة موضع الخطأ والعثور على العلة التي تقرب المسافة بين دولة شيوعية كبرى وبين قوة كبرى في الخندق المقابل . وليس في طوقي ان اقدم حلا لمجمل الاشكال غير بيان الرأي وقد سميته (وجهة نظر) في صدر المقال . ولست مطالبا بحساب النتائج النظرية وماذا يكون من شأنها وشأن

بنيانها القائم بعد تعديله أو تغييره . ولقد صارحت قرائي في الكردية اني حين اكتشف ان (٨٩٧٢+٥٤٣١) لا يساوي (١٥٠٠) فاني غير ملزم باكتشاف النتيجة الصحيحة ايضا فقد اعجز عنه . وربما جاز لي الاستشهاد هنا بماتم في علم الفلك يوم جاء كوپرنيكوس وطوى الافلاك الثمانية لبطليموس فقد اطلق الفضاء من هذه الأصفاد وفتح باب الزنزانة بوجه الأرض لتدور طليقة حول الشمس وترك المسألة بعد ذلك للأكتشاف على حسب قدرات الفلكيين وبقية المقاربين لهم والمسهلين لعملهم . ولكنني ارى بوضوح ان تأطير مراحل الحضارة بمراحل تقدم الانسان اصعب من تأطير التأريخ بالمراحل المعلومة على النظر المادي وتكون صعوبته بمقدار طلاقة الانسان وفاعلية ارادته وتنوع تصرفه في الزمان والمكان بقياسها الى تحجر المادة الميتة فالمحراث لايثور بوجه الفلسفة في الحط من شأنه ولا يشكرها على رفع مقداره ولكن انسان الصين يثور بوجه الفلسفة حين يتصدى لانسان روسيا رغم حكم الفلسفة انهما لايتشاجران بعد زوال القهر واختفاء الاستغلال الاقتصادي بينهما في ظل الشيوعية . ان الانتاج منقاد الى القوانين التي يفرزها النظام المسيطر ولكن العقيدة في الأعماق قد تقاوم القوانين فتروح تسجد للبابا في عهد العلمانية وكانت في عهد العاطفانية تكتفي بالاصطفاف له وتقبيل يده . فالمادية تستطيع ان تدعي الأقناع حين تشابه النتائج في الاحوال المادية المتشابهة ولكن اختلاف النتائج في الاحوال المادية المتشابهة لايمنح التفسير المادي أية فسحة للاقناع على حين ان ذلك لايثير بوجه التفسير البشري اي اشكال لانه قد يعجبه ان يخالف اقتضاآت الأحوال المادية وهو قادر بعد ذلك على الاقناع الميسور حين تنعكس

الآية فتلد الأحوال المختلفة نتائج متشابهة بسبب اتجاه ارادة أو قناعة الانسان نحو ذلك وهكذا الى نهاية الف الف احتمال مما يقطع في الدلالة على ان استنباط المراحل في التفسير البشري عملية ذات طبيعة زئبقية قلقة على مقاس البشر نفسه في القلق والترجرج . ولكنه على اي حال غير مستحيل في نطاق نظرية للنمو واسعة الاطار تحتوي انطلاقات البشر على كل اتجاه وترصد العلامات البارزة في مسيرة تقدمه وتراعي الترابط بين نموه الحضاري وانظمة حكمه واقتصاده وابنيته الفوقية . ولربما صحت تسمية بعض المراحل من مثل مرحلة الاجتماع ومرحلة الدين ومرحلة الدولة ومرحلة الكتابة وهكذا وقد ينكشف البحث عن وجهة اخرى مباينة وما بحث ذلك بمستطاع في مجالنا الضيق الآن .

ورب قائل يقول ان التفسير البشري لتأريخ البشر هو بمثابة تفسير الماء بالماء فاقول ان ذلك تعبير غير دقيق فهو في الحقيقة بمثابة تفسير الماء بانه اوكسجين وهايدروجين . ويمكن ان يتصف التعبير بدقة أوفر اذا مثلنا للتفسير البشري بمركب آخر غير الماء كثير العناصر بالغ التعقيد جم المطاليب . على ان تفسير الماء بالماء اشرف من تفسيره بانه زرنيخ .

وبنفسي نزوع للافاضة في امور لاحصر لها ولكن للضرورة احكاما فأكتفي بعرض مثال واحد له الف مماثل . فمن الاخطاء الفكرية البارزة مساواة الحضارة بالمرحلة التأريخية واعتبارها شيئاً واحداً او ان الحضارة بنت المرحلة . ويتسرب هذا الخطأ الى مدى أبعد حين يخلط الحضارة بالصراع الطبقى والثورة من اجل السلطة

فالواقع هو ان الحضارة ذات تميز شبه مستقل عن هذه الأمور فهي تنمو على جذورها وتتغذى بزادها عبر الظروف والأحوال المؤاتية والمعرقلة وتبقى حركة متصلة وهي تجتاز مرحلة تأريخية الى مرحلة اخرى منبعثة . انها تنمو في المرحلة الواحدة ولـو دامت المرحلة نفسها مليون سنة ورقم المليون هنا لزيادة التأكيـد . ان السلطة تنقطع من الاقطاعي الى البرجوازى فالاشتراكي ولكن الحضارة لاتنقطع وغاية ارتباطها بهذه المراحل ان احداها تكون اوفق لها من الأخرى ، وكانت الثورة الفرنسية في بعض ايامها ووجوهها عدوة للحضارة وقتلت (لافوازيه) بغيابها عن الحضارة غيابا كليا . كثيرا ماتفتك الثورات بالحضـارة وعلومها وادابهـا وفنونها في عنفـوان اضطرابها وكان من افضال (لينين) مثلا انه حمى الحضارة الروسية من نزق الثائرين .

من طبيعـة الحضارة ان تنتشـر على كـل الجوانب في كـل المراحل الا اذا جاء قامع يقمعها أو مقـولب يفرغهـا في هياكـل مصبوبة بـالقهر والغشم فليس في واقـع الأمر حضـارة اقطاعيـة واخرى برجـوازية وثـالثة اشتـراكية وغـاية خضـوعها لمثـل هذه التسميات انها مضطرة الى الرضوخ للقوة كما يضطر البروليتاري الى الرضوخ لسيد القرية .

وكانت الحضارة على مدى الزمان في عدم انسجام مع القوة المسيطرة ومع العوائد الأجتماعية والافكار الضبابية لأن طلاقتها لاتسـاير التـأطير والتحجيم . ولا غـرابة في ان تكـون حضـارة الانسان البدائي ابسط من حضارة طور الزراعة والصناعة لانها تنمو على الايام وتنمى معها الظروف والأحوال حتى تمر بالزراعة والصناعة والزراعة المصنعة وبالاقطاع والبرجـوازي والأشتراكي

ومابعده ومابعد مابعده ، فان هذه الظواهر والمراحل لم تكن قوالب جاهزة لبستها الحضارة [على الحاضر] طورا بعد طور . ولم يكن ازدهار الحضارة بفضل الصناعة بل العكس هو الصحيح فالصناعة علم والعلم حضارة واكثر صور الحضارة تقدما . فقد وجدت حضارة بلا صناعة ولم توجد صناعة بلا حضارة الا ما كان منها مستوردا بالنقد فحل في بلد غير متحضر . اننا لانستغرب ان تكون قابليات الانسان متفاوتة من عمر الطفولة الى الصبا الى الشباب ولا نقول قطعا ان قصور قابليات الطفل كان بسبب نقص مقاس مهده عن مقاس سرير الصبى أو ضيق جلده عن جسم الشاب فالطفل ينمو وينمو معه جلده الا اذا كان الجلد مريضا . فالحضارة هي الانسان نفسه والخط المضئ فيه فاذا طمسها القهر من المسيطر أو المتحجر فقد تبين مدى الفارق بينها وبينهما وليس مدى توحدها معهما في الشيئية . ومن افدح الاخطاء المماثلة والداخلة في حكمها مايردد من مصطلح الادب البرجوازي والاقطاعي والأشتراكي . فاذا اخذنا الادب الفرنسي المعاصر مدارا للكلام - ويصفونه بالادب البرجوازي - فهو في الحق ادب الانسان في نهاية القرن العشرين يشمل المسافة بين اليسار الواقع وراء الشيوعية واليمين الواقع وراء الكنيسة . وربما كان حظ البرجوازية من صداقة هذا الأدب اقل الحظوظ فالادباء الفرنسيون الاصدقاء للكرملين اكثر من اصدقاء الاليزية ولا اقول من اصدقاء حضارة فرنسا فقد انحاز اليها الشيوعي الفرنسي اخيرا باكثر من انحيازه الى الحضارة المبنية على دكتاتورية البروليتاريا . والمجال في فرنسا امام الأديب الشيوعي أوسع منه في اي بلد محكوم بالحزب الواحد في اوروبا . لقد كانت وما تزال ميزة الادب الفرنسي وكل

ادب مماثل انه ينتقد ما هو قائم للوصول الى الأحسن . ومن اقوال جراهام جرين الرائعة ان الاديب اذا تحيز لاي شئ تحيزاً نهائياً فقد فاعليته ، فعليه دائما ان يكون في موقع الانتقاد . ولكني استثني ظروفا يتوقف فيها المصير على انحياز الكل لشئ واحد وفيما عدا ذلك تبقى رسالة الاديب ان يكشف مواطن الخلل ومكائن الخطأ بالاضافة الى الامتاع والانارة .

وتكون اضافة الادب الى النظام الاقتصادي صحيحة في الانظمة الشيوعية فادبها وفنها وعلمها كلها شيوعي ولا يسمح بطبع ونشر شئ خارج هذا المفهوم . ولتبرير ربط الادب بالدولة يستمر الأصرار على ان الادب في كل بلد هو خادم نظامه الاقتصادي فانقلب الادب الفرنسي من هذه الزاوية آلياً الى ادب برجوازى وما هذا من الحق في كثير او قليل . ويكون الضغط على الفن اخف في العادة بسبب غموض مراميه وضعف فهم الناس . والشعر اسلم عاقبة من النثر لاسباب لاتشرح هنا .

وليتني شرحت رأيي في دحض المقولة الشائعة من ان المحاكم كانت مسخرة للنظام الاقتصادي او لنظام الحكم عبر العصور وبينت كيف أنها كانت عبر العصور امل الضعيف وملاذ المظلوم . وليتني تكلمت في دور الدين على مدى التأريخ وفي غير هذا وذاك من المواضيع مخالفا فيها منطلق النظر المادي الجدلي اليها بما عندي من ادلة الفكر وبراهين الأحداث ! !

وما أشد كراهيتي لمغادرة الكلام الذي لم يقطع في التوضيح مداه المنظور والمقدور . وماشد العناء في طلب شئ لاتبلغه اليدان : ويضيف الشعور بقلة الاستطاعة وخلو الظهر وفقدان

المعين وضيق المجال من ثقل الوقر الذي يتراكم منذ اربعين سنة ، ويتعاظم فيه البلاء بتضاعف الزخم الداخلي الضاغط على عصب الشعور بالمسؤولية المانع من السكوت فلا مندوحة من الأنضغاط بين شقى الدافع والرادع وأقصى الرجاء فيه براءة الذمة وراحة الضمير وهي في موازين اهلها كفاء التعب .

الموضوع في جملته وبحد ذاته وبصرف النظر عن الظروف والأحوال كبير خطير ومقدار استطاعتي صغير يسير . وللقارئ بعد هذا ان يجد في ثنايا ما بينت مناط تأثري بالاشخاص والفلسفات وليبحث حيث لامناط .

السعر ٥٠٠ فلسا

مطبعة علاء - الوزيرية - هاتف 4224915